ذكر حرب البسوس

سببها

قالت الرُّواة :

كان كُليب بن رَبيعة بن سِنان بن مَرْثد بن عبد بن عمرو بن بِشر بن مَرْثد، أخو بنى قيس بن ثعلبة ، قد ساد ربيعةَ ، فبغا بغياً شديداً . وكان هو الذى يُنزلهم منازلَهم ويُرحِّلهم ، فلا يَنزلون ولا يَرْحلون إلا بأَمره . فبلغ من عزّه و بَغْيه أنّه اتَّخذ جَرْو كَلْبٍ ، فكان إذا نزل منزلاً فيه كلأٌ قَذف ذلك الجَرْوَ فيَعْوى ، فلا يَرعى أحدٌ ذلك الكلأَ إلا بأَمره . وكان يفعل ذلك بحياض الماء، فلا يَرِدُها أحدٌ إلا بإذنه ، أو من آذن بحرب . فضُرب به المثلُ فقيل : أعزُّ من كُليب وائل . وكان يَحمى الصَّيد فيقول : صيدُ ناحية كذا وكذا فى جوارى . فلا يَصيد أحدٌ منه شيئاً . وكان لا يمُرّ بين يديه أحد إذا جلس ، ولا يَحتبى فى مَجلسه غيرُه . وكان لِمُرَّة بن ذُهل بن شَيبان عَشرة بَنين ، جسّاس أصغرهم . وكانت أختُهم زوجةَ كُليب . وكانت البَسوس خالةَ جسّاس بن مُرّة . وهى التى يَضرب العربُ المثلَ بشُؤْمها فيقولون : أشأَم من البَسوس . فنزَلت على ابن أُختها جسّاس . وكانت جارةً لبنى مُرة ، ومعها ابنٌ لها ، ولها ناقة خَوّارة[1] من نَعم بنى سَعد ، ولها فَصيل معها . فبينا زوجةُ كُليب ، وهى أُخت جسّاس بن مُرة ، يوماً تغسل رأس كُليب بن ربيعة وتُسرِّحه إذ قال لها : من أعزُّ وائل ؟ فَصمتت . فأعادها . فلما أكثر عليها قالت : أخواى : جسّاس وهَمّام . فَنزع رأسَه من يدها وأَخذ القوس فَرمى فَصيل ناقة البَسوس ، خالةِ جسّاس وجارةِ بنى مُرّة ، فقتله . فأَغمضوا على ما فيها وسكتوا على ذلك . ثم لَقِى كُليبُ بن ربيعة جسّاسَ بن مُرّة[2] ، فقال : ما فَعل

(١) خوارة : حسنة جميلة .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ابن البسوس » .

فصيلُ ناقتكم ؟ قال : قتلتَه وأخليتَ لنا لبن أُمه . فأغضوا على هذه أيضاً . ثم إن كُلَيباً أعاد على اُمرأته فقال :من أعزُّ وائل ؟ قالت : أخواى . فأضْمرها وأسرّها وسكت، حتى مرّت به إبل جسّاس، فرأى الناقة فأنكرها ، فقال : ماهذه الناقةُ ؟ قالوا: لخالة جسّاس . فقال : أوَقد بلغ من أمر اُبن السعديّة أن يُجير علىّ بغير إذنى ! فأخذ القوس فرَمى ضرع الناقة . فاختلط دمُها بلبنها . فراحت الرُّعاةُ إلى جسّاس وأخبروه بالأمر . فقال : احلُبوا مِكْيالَىْ لَبن لها ولا تذكروا لها من هذا شيئاً . ثم أغضوا على ذلك أيضاً . وسكت جسّاس حتى ظَعن بنو بكر و بنو تَغلب ، ابنى وائل . فمرّت بكر بن وائل على نَهْى[1] يقال له: شُبَيث ، فنهاهم[2] كُلَيب عنه، وقال : لا يذُوقون منه قَطرة . ثم مرُّوا على نَهْى آخر يقال له : الأَحصّ . فمنَعهم إيّاه أيضاً . فمضَوْا حتى نزلوا الذَّنائب . وأتبعهم كُلَيب وحيُّه حتى نزلوا عليه . ثم مرّ عليه جسّاس وهو واقفٌ على غدير الذّنائب ، فقال : طردتَ أهلنا عن المياه حتى كِدْت تقتلهم عَطشاً ! فقال كُليب : ما منعناهم من ماء إلا نحن له شاغلون . فناداه جسّاس فقال : هذا كفِعْلك بناقة خالتى ! فقال : أوَقد ذكرتَها ! أما إنّى لو وجدتُها فى غير إبل مُرة لاستحللْتُ تلك الإبلَ بها . فعَطف عليه جسّاس بن مُرّة فرسَه فطَعنه بالرُّمح فأنفذ حِضْنَيه . فقال : ياجسّاس ، اُسْقنى الماء . فقال: ماعقلتُ استسقاءك الماء منذ ولدتْك أُمك إلا هذه الساعة . وعَطف عليه المُزدلف بن عمرو ابن أبى ربيعة فاحتزّ رأسَه .

همام و جساس بعد مقتل كليب

وكان همّام أخو جسّاس صديقاً لمُهلهل بن ربيعة ، أخى كُلَيب ، وكان عاقَده ألا يَكْتُمه شيئاً . ولما قَتل جسّاسٌ كليباً كان همّام ومُهلهل جالسين ، ومَرَّ جسّاس بعدأن قتل كُلَيباً يركُض فرسَه مُخرجاً فخذيه . فقال همّام أخوه : إنله لأمراً ! والله ما رأيتُه كاشفاً فخذَيْه فى رَكض قطُّ . فلم يلبث قليلاً حتى جاءته خادمُه فسارَّتْه

(١) النهى : الغدير . (٢) فى بعض أصول الأغانى : « فنفاهم » .

بأنّ جسّاساً قتل كُليباً . فقال: ما أخبرتْك ؟ قال : أخبرتْنى أن أخى قَتل أخاك . فقال : هو أَضيقُ اُستاً من ذلك !

جساس وأبوه مرة

وجاء جسّاس إلى أبيه مُرَّة . فقال : ماوراءك يابُنى ؟ فقال :ورائى أنّى طعنتُ طعنةً لتُشْغلنّ بها شُيوخ بنى وائل زَمناً . قال : أقتلت كُليباً ؟ قال : نعم . قال : وَدِدْتُ أنّك و إخوتَك مِتُّم قبل هذا ! ما بى إلا أن يَتشاءم بى أبناء وائل .

بنو تغلب ومرة بن ذهل

ولما قُتل كُليب ، قالت بنو تَغلب قومُه بعضُهم لبعض : لا تَعجلوا على إخوتكم حتى تُعذروا بينكم و بينهم . فانْطلق رهطٌ من أشرافهم وذوى أسنانهم حتى أَتوا مُرة بن ذُهل ، أبا جسّاس ، فعظَّمُوا مابينهم و بينه وقالوا : اختر منّا خِصَالاً : إمّا أن تدفع إلينا جسّاساً فنقتلَه بصاحبنا ، فلم يظلم من قتل قاتلَه ؛ و إمّا أن تدفع إلينا همّاماً ؛ و إما أن تُفيدنا من نفسك . فسكت ، وقد حضرتْه وُجوه بنى بكر بن وائل، فقالوا : تَكلَّم غير مَخذول. قال : أمّا جسّاس فإنه غُلام حديثُ السنّ رَكب فَرسه فَهرب حين خاف، فلاعِلْم لى به . وأمّا همّام فأَبوعشرة، وعم عشرة ، لو دفعتُه إليكم لصَيَّح بنوه فى وَجهى وقالوا : دفعت أبانا لِيُقتل بجريرة غيره . وأما أنا فلا أتعجَّل الموت ، وهل تَزيد الخيلُ على أن تجول جولة فأَكونَ أوَّل قتيل ! ولكن هل لكم فى غير ذلك : هؤلاء بنىّ فخذُوا أحدَهم فاقتُلوه به ، و إن شئتُم فلكم ألف ناقةٍ تَضْمنها لكم بكر بن وائل . فغَضبوا وقالوا : إنّا لم نأْتك لتُرذلَ لنا بَنيك[1]، ولا لتَسومنا اللَّبن ! فتفرَّقوا ، ووقعت الحربُ بينهم .

كلمة الحارث ابن عباد

وتُكلم فى ذلك عند الحارث بن عُباد فقال: لا ناقةَ لى فى هذا ولا جَمل . وهو أوَّل من قالها . فذَهبت مثلاً .

الحرب بين الحيين

وكانت الحرب بينهم أربعين سنة . وكان بينهم فى تلك السِّنين خَمس وَقَعات

(١) أى تعطينا رذال بنيك .

مُزاحفات ، وفيما بين تلك الوقعات مُغاورات[١] : كان الرَّجلُ يَلقى الرجلَ ، والرَّجلان الرَّجلَيْن ، ونحو هذا . وكانت تارة يكون الظُّهور لبكر ، وتارة لتغلب ، وتارة يَنْتصف كلٌّ منهم من صاحبه .

مقتل همام

وفى بعض تلك الحُروب قُتل همّام بن مُرة أخو جسَّاس . وكان من حديث قَتْله أنه وَجدغُلاماً مَطْروحا ، فالتقطه ور بَّاه وسمّاه : ناشرة ، فكان عنده لقيطاً . فلما شَبَّ فإذا هو من تَغلب . فلما التقَوا جعل همَّام يُقاتل ، فإذا عَطش رَجع إلى قِربة فشَرِب منها ، ثم وضع سلاحه . فوجد ناشرةُ من همّام غَفلةً ، فشدّ عليه[٢] بالعَنَزة فأَقْصده فقَتله ، ولحق بقومه تَغلب .

مشاركة الحارث ابن عباد

فكان رئيسَ بكر ، بعد همّام بن مُرة ، الحارثُ بن عُباد ، وكان قد اعتزل الحَرب لما قُتل كُليب واستعظم قَتْل كُليب فى سُؤدده لناقة . فقَتل مهلهلُ بن ربيعة بُجيراً ، ابن أخى الحارث — وقيل : بل هو ابن الحارث نفسه — وقال حين قتله : بُؤ بشِسْع نَعل كُليب ! وبلغ قتلُه الحارثَ فقال : نِعم الغُلامُ غُلام أصلح بين أبنى وائل ! فلما سمعتْ بكرٌ قولَ الحارث قالوا له : إنّ مُهلهلاً لما قَتله قال : بُؤ بشِسْع نعل كُليب ! فغضب الحارثُ عند ذلك ونادى بالرَّحيل ، وقال :

قَرِّبَا مَرْبَطَ النَّعامة منِّى ... لَقِحَتْ حربُ وائل عن[٣] حِيالى

لا بُجيرٌ أغنَى قتيلاً ولا رَهْـ ... ـطُ كُليبٍ تَزاجرُوا عن ضَلال

لم أكُن من جُناتها شَهد اللّـ ... ـهُ وإنِّى بحرِّها اليومَ صَالى

أسر الحارث لمهلهل

ثم كانت بين الفريقين وقعةأَسر فيها الحارثُ بن عُباد مُهلهلاً وهو لا يعرفه،فقال

(١) مغاورات : يغير فيها بعضهم على بعض .

(٢) العنزة : شبه العكازة ولها زج من أسفلها .

(٣) النعامة : فرسه . ولقحت : حملت . والحيال : ألا تحمل الأنثى . يريد : هاجت الحرب بعد سكون .

له : دُلَّنى على مُهلهل . فقال : ولى دَمِى؟ قال : ولك دمُك . قال: ولى ذمّتك وذمةُ أبيك ؟ قال : نعم . قال : فأنا مُهلهـل . قال : فدُلَّنى على كُفء لبُجير . قال : لا أعلمه إلا امرأَ القيس بن أَبان، هذاك عَلَمُه . فجَزَّ الحارثُ ناصيةَ مُهلهل وأَطلقه، وقَصد قَصْد أمرىء القيس فقَتله ببُجير .

خروج مهلهل وإكراهه على تزويج ابنته

وخَرج مُهلهل بعـد الأَسر فلحق بأَرض اليمن، فكان فى جَنْب[1] . فخَطب إليه أحدُهم ابنته . فأَبى أَن يفعل . فأَكرهوه . فأَنكحها إيَّاه ، وقال فى ذلك :

أَنكحها فَقْـدُها الأَراقمَ[2] فى جَنْبٍ وكان الحِباء من أَدَمِ
لو بأَبانَيْن[3] جاء يَخْطُبهـا ضُرِّج ما أَنفُ خاطبٍ بدَم
أصبحتُ لا مُنفِسًا[4] أصبتُ ولا أُبت كريماً حُرًّا من النَّـدم
هان على تَغْلبٍ بما لقيتْ أُختُ بنى المالكين من جُشَم
ليسوا بإخواننا[5] الكِرام ولا يُغْنُون من عَيْلَةٍ ولا عَدَم

ومات جسَّاس بن مُرة — فيما ذُكر — حَتْف أَنفه .

ترحيل جليلة عن مأتم كليب

وقيل :

لما قَتل جسَّاس كُليباً اُجتمع نساء الحىّ فقُلن لأُخت كُليب: رحِّلى جَليلة بنت مُرة ، أُخت جسَّاس ، عن مأْتمنا ، فإن قيامَها فيه شَماتة وعارٌ علينا عنـد العرب . فقالت لها : أُخرجى عن مأْتمنا، فأَنت أختُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا . فخرجتْ وهى تجرُّ أَعْطافَها . فلقيها أبوها مُرَّةُ فقال : ما وراءك يا جليلة ؟ قالت : ثُكْل العَـدَد ، وحُزن الأَبد ؛ وفَقْد خَليل ، وقَتل أخٍ عمّا قليل ؛ و بين ذَيْن غرسُ الأَحقاد ،

(١) جنب : حى باليمن من مذحج .
(٢) الأراقم : حى من تغلب .
(٣) أبانان : جبلان .
(٤) المنفس : المال الكثير .
(٥) فى بعض أصول الأغانى : « بأكفائنا » .

وتفتُّت الأكباد . قال : أوَ يكُف عن ذلك كرمُ الصَّفح و إغلاء الدِّيات ؟ فقالت : أُمنيَّة مَخدوع وربِّ الكعبة ، إنك لتعلم أنّ تغلب لا تَدَع دَم ربِّها لك .

وقيل : قالت أُخت كُلَيب لمّا رحَّلت جليلةَ : رِحلةُ المُعتدى، وفِراق الشامت، ويلٌ غداً لآل مُرة ، من الكَرَّة بعد الكرة . فبلغ قولُها جليلةَ ، فقالت : كيف تَشمت الحُرة بهَتْك سِتْرها ، وترقُّب وِتْرها . وأنشأت تقول :

يَابنة الأقوام إن شئتِ فلا ... تَعْجلى باللَّوم حتى تَسألِى
فإذا أنت تبيَّنت الذى ... يُوجب اللَّومَ فلُومى واعْذِلى
إن تكُن أخت امرىء لِيمتْ على ... شفق منها عليه فافعلى
جَلَّ عندى فعلُ جسَّاس فيا ... حَسْرتِى عما انجلتْ أو تَنْجلى
فعلُ جسَّاس على وَجْدِى به ... قاطعٌ ظَهرى ومُدنٍ أَجلى
لو بعَينٍ فُقئتْ عينى سوى ... أُختها فانفقأَتْ لم أَحْفل
يا قَتيلاً قوَّض الدهرُ به ... سَقف بيتىَّ جميعاً من عَل
هَدم البيتَ الذى استحدثتُه ... وأُثنى فى هَدْم بَيْتى الأول
ورَمانى قتلُه من كَثَبٍ ... رميةَ المُصْمِى به المُستأْصل
يا نِسائى دونكنَّ اليومَ قد ... خصَّنى الدهرُ برُزْءٍ مُعْضل
خصَّنى قتلُ كُلَيبٍ بلظًى ... من ورائى ولظًى مُستَقْبلى
ليس مَن يبكى ليومَيْه كمَن ... إنما يَبكى ليومٍ يَنْجلى
يَشتفى المدركُ بالثَّأْر وفى ... دَرَكى بالثأْر ثُكْلُ[1] المُثْكل
ليتَه كان دمى فاحْتلبوا ... بدلاً منه دماً من[2] أَكحلى
إنَّنى قاتلةٌ مَقْتولةٌ ... فلعلَّ الله أن يرتاحَ لى

(١) المثكل : التى لازمها الحزن .
(٢) الأكحل : عرق فى الذراع .

أخبار ابن قيس الرُّقيات (*)

نسبه

هو عُبيد الله بن قيس بن شُرَيح بن مالك بن ربيعة بن أُهيب بن ضِبَاب بن حُجير بن عَبد بن مَعيص بن عامر بن لُؤيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر .

أمه ولقبه

وأُمه قتيلة بنتُ وَهب بن عبد الله . من بنى بكر بن عبد مناة بن كِنانة .

و إنما لُقب بالرُّقيَّات لأنه شَبَّب بثلاث نسوة سُمِّين جميعاً رُقيَّة ، منهن : رُقيةُ بنت عبد الواحد بن أبى سعد بن قيس ، من بنى عامر بن لؤى ؛ وابنة عمٍّ لها يقال لها : رقيَّة ؛ وأخرى من بنى أُمية ، يقال لها : رُقية .

وفوده على عبد الملك بعد مقتل مصعب الزبيرى

قيل :

كان عُبيد الله بن قيس الرقيَّات مُنقطعاً إلى مُصعب بن الزُّبير بن العوَّام ، ولم يزل فى صُحبته إلى أن قُتل .

قال عُبيد الله :

خرجْتُ مع مُصعب بن الزُّبير حين بَلغه شُخوصُ عبد المَلك بن مَروان إليه ، فلما نَزل مُصعب بن الزُّبير بمَسْكِن[1] ورأى معالم الغَـدْر ، دَعانى ودعا بمالٍ ومَناطق ، فملأ المَناطق من ذلك المال وألبسنى منها وقال لى : انطلق حيثُ شئت فإنِّى مقتول . فقلتُ : والله لا أَريم حتى أرى سبيلَك ، فأقمت معه حتى قُتـل . ثم أقبلتُ إلى الـكوفة ، فأول بيت صرتُ إليه دخلتُه . فإذا فيه امرأة لها ابنتان كأنهما ظَبيتان ، فرقِيتُ فى درجة لها إلى مَشْربة[2] فقعدتُ فيها . فأمرتْ لى المرأةُ

(*) جرد ابن واصل تجريده من « أخبار الهذلى » . وقد أورد أبو الفرج لسعيد الهذلى المغنى بعض أخبار قليلة قبل أخبار ابن قيس الرقيات .

(١) مسكن : موضع على نهر دجيل . كانت به الوقعة بين عبد الملك ومصعب سنة ٧١ هـ .

(٢) المشربة : الغرفة .

بما أحتاج إليه من الطَّعام والشَّراب والفَرش والماء للوضوء . فمكثتُ كذلك عندها أكثر من حول تُقيم لى ما يُصلحنى ، وتَغدو علىَّ فى كل صباح فتسألنى بالصَّباح[1] والحاجة . ولا تسألنى من أنا ، ولا أسألها من هى ، وأنا فى ذلك أسمع الصِّياح فىَّ والجُعْلَ . فلما طال المُقام وفقدتُ الصياح فىَّ وغَرِضْتُ بمكانى غَدتْ علىَّ تسألنى بالصَّباح والحاجة . فأعلمتُها أنِّى قد غرِضْتُ وأحببتُ الشُّخوص إلى أهلى . فقالت لى : نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء الله . فلمَّا أمسيتُ وضرب الليلُ بأَرواقه رقيتْ إلىَّ وقالت : إذا شئت ؟ فنزلتُ . فأَعدّت لى راحلتين عليهما ما أحتاج إليه ومعهما عبد ، وأعطت العبد نفقةَ الطريق، وقالت : العبد والراحلتان لك . فركبتُ ورَكب العبد معى حتى طرقتُ أهلى بمكَّة ، فدققتُ منزلى . فقالوا : من هذا ؟فقلتُ: عُبيدالله بن قيس الرقيّات . فوَلولوا و بكَوْا وقالوا : مافارقَنا طلبُك إلا فى هذا الوقت . فأقمتُ عندهم حتى أسحرتُ ، ثم نهضتُ ومعى العبد حتى قدمتُ المدينةَ ، فجئتُ عبد الله بن جَعفر بن أبى طالب عند المساء ، وهو يُعَشِّى أصحابه ، فجلستُ معهم وجعلت أتعاجم وأقول : يار ، يار ، ابن طيار[2] . فلمّا خرج أصحابُه كشفتُ له عن وجهى . فقال : ابن قيس الرقيات ؟ قلتُ : ابن قيس ، جئتك عائذاً بك . فقال : ويحك ! ما أجدَّهم فى طَلبك وأحرصهم على الظَّفر بك ، ولكنِّى سأَكتُب إلى أُمّ البَنين بنت عبد العزيز بن مَروان ، وهى زوجةُ الوليد ابن عبد الملك ، وعبد الملك أرقُّ شىء عليها . فكتب إليها يسألها أن تَشفع إلى عمّها . وكان عبدُ الملك يدخل إليها و يسألها: هل من حاجةٍ ؟ فدخل إليها عبدُ الملك كما كان يفعل وسألها : هل من حاجة ؟ قالت له : نعم ، لى حاجة . قال : قُضيت

(١) أى كيف أصبحت وما حاجتك .

(٢) يار : كلمة فارسية بمعنى : صاحب ، وشفيق ، ومعين . وطيار : لقب جعفر بن أبى طالب ، والد عبد الله . وكان قد قطعت يداه فى غزوة مؤتة فأثابه الله بذلك جناحين يطير بهما إلى حيث شاء فى الجنة . والذى فى بعض أصول الأغانى : « تيار ، تيار ، أى طيار » .

كُلُّ حاجة لك إلا ابنَ قيس الرقيات . فقالت : لا تَستثن علىَّ شيئاً . ونَفح بيده فأَصاب وَجهها . فوضعتْ يدها على خَدّها . فقال : يا بنتى ، ارفعى يدك ، فقد قضيتُ كل حاجة لك و إن كانت لابن قيس الرقيَّات . فقالت : إنَّ حاجتى لابن قيس تؤمّنه ، كتب إلى أبىَ يسأَلنى أن أسْأَلَك ذلك . قال : فهو آمن ، فمُريه أن يحضُر مجلسى العشيَّة . فحضر ابنُ قيس ، وحَضر الناسُ حين بلغهم مجلس عبد الملك . وأخَّر الإذن ، ثم أَذن للناس . وأخَّر إذن ابن قيس الرقيَّات حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذن له . فلمّا دخل عليه . قال عبدُ الملك : يأهل الشام ، أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا عُبيد الله بن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نَومى على الفِراش ولمّا ... تَشمل الشأْمَ غارةٌ شَعواء
تُذْهل الشَّيخ عن بَنيه وتُبدِى ... عن خِدام[1] العَقيلة العَذراء

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أسقنا دَم هذا المُنافق . قال : الآن وقد أمَّنتُه وصار فى منزلى ! وقد أخرتُ الإذن لتقتلوه فلم تَفعلوا . فاستأْذنه ابنُ قيس أن يُنشده . فأنشده قصيدتَه التى يقول فيها :

عادَ له من كَثِيرةَ الطَّربُ ... فَعينُه بالدُّموع تَنسكبُ
كُوفيَّةٌ نازحٌ مَحلَّتُها ... لا أَمَمٌ دارُها ولا صَقَب
والله ما إن صَبتْ إلىَّ ولا ... إن كان بينى و بينها سَبب
إلَّا الذى أَورثت[2] كَثيرةُ فى الْـ ... ـقلب وللحُبِّ سَوْرةٌ عجب

حتى قال فيها :

---

(١) الخدام : جمع خدمة ، بالتحريك ، وهو الخلخال . وهوهنا فى نية : عن خدامها . وعدى « تبدى » بعن ، لأن فيه معنى : تكشف .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « أثارت » مكان « أورثت » .

إنّ الأغرّ الذى أبوه أبو الـ ـعاصى عليه الوَقار والحُجُب
يعتـدِل التّاج فوق مَفْرِقه على جَبينٍ كأنه الذّهب

فقال عبدُ الملك : تمدحنى بالتاج كأنى من العجم ، وتقول فى مصعب :

إنما مُصعبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلّت عن وَجهه الظّلماء
ملكُه مُلك رحمةٍ[1] ليس فيه جَبروتٌ يُرى[2] ولا كِبْرياء

أمّا الأمان فقد سَبق لك ، لكن والله لا تأْخذ مع المُسلمين عطاء أبداً .

ومن هذه القصيدة البائيّة :

ما نَقموا من بنى أُميّة إلّا أنهم يَحْلمون إن غَضِبوا
وأنّهم سادةُ المُلوك فلا تصلحُ إلّا عليهمُ العَرب

مدح ابن جعفر على إحسانه إليه

وقال ابن قيس لعبدالله بن جعفر : ماينفعنى أمانى ، تُركتُ حيًّا كميت، لا آخذ مع الناس عَطاء ! فقال له عبدُ الله بن جعفر : كم بلغتَ من السنّ ؟ قال : سِتّين سَنة . قال : فعمِّر نفسك . قال:عشرين سنة مِن ذى قَبَلٍ[3] . قال : عشرين سَنة ، فذلك ثمانون . قال : كم عطاؤك ؟ قال : ألف درهم . قال : فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال : ذلك لك حتى تموت على تَعميرك نفسك. فعند ذلك قال عُبيدالله بن قيس يَمدحه:

تقدّتْ بى[4] الشّهباء نحو ابن جَعفرٍ سواءٍ عليها ليلُها ونَهارُها
تَزُور امرأً قد يَعلم الله أنّه تَجود له كفٌّ بَطىءٍ[5] غِرارها
أتيناك نُثْنى بالّذى أنت أهلُه عليك كما أثنى على الأرض جارها

(١) فى بعض أصول الأغانى : « عزة » مكان « رحمة » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « منه » مكان « يرى » .
(٣) أى فى المستقبل .
(٤) تقدت : أى سارت سيراً ليس بعجل ولا مبطىء .
(٥) الغرار : أن تمنع الناقة درّها . يريد أن منعها المعروف بطىء . وفى رواية : « قليل قرارها » .

فوالله لولا أن تَزُرر ابنَ جَعفرٍ ... لكان قليلاً فى دِمَشْق قَرارُها
إذا مِتَّ لم يُوصَلْ صَديق ولم تُقَمْ ... طريقٌ من المعروف أنت مَنارها
ذكرتُك أن فاض الفُراتُ بأرضنا ... وفاض بأعلى الرقَّتَيْن[1] بحارها
وعندىَ مما خَوَّل الله هَجمةٌ ... عَطاؤك منها شَوْلُها[2] وعِشارها
مُباركةٌ كانت عطاءَ مُبارِكٍ ... تُمانِح[3] كُبْراها وتَنْمِى صِغارها

وقيل :

أمر له عبدُ الله بن جعفر بجاريةٍ حَسْناء بعد أن أَمَّنه عبدُ الملك : فقال يمدحه ويذكر إحْسانَه إليه :

إذا زُرتُ عَبدَ الله نفسِى فداؤُه ... رجعتُ بفضلٍ من نَداهُ ونائلِ
وإن غِبْتُ عنه كان للوُدِّ حافظاً ... ولم يَكُ عنِّى فى المَغيب بغافِلِ
تَداركنى عبدُ الإلٰه وقد بدتْ ... لذى الحِقْدِ والشَّنْآن منِّى مَقاتلى
وأنقذنى من غَمرة الموت بعد ما ... رأيتُ حِياضَ الموت جَمَّ المناهل
حَبانِىَ لما جئتهُ بعطيَّةٍ ... وجاريةٍ حسناءَ ذاتِ خَلاخل

بين ابن المسيب ونوفل فى المفاضلة بينه وبين ابن أبى ربيعة

وحكى سَعيد بن مُسلم بن وَهب قال :

دخلتُ مسجد رسُول الله صلَّى الله عليه وسلم مع نَوفل بن مُساحق ، فإنه لمُعتمدٌ علىَّ ، إذ مررنا بسعيد بن المُسيِّب فى مجلسه ، فسلَّمنا عليه فردَّ علينا سَلامَنا ، ثم قال لنوفل : يا أبا سَعيد ، من أشعر : أصاحبنا أم صاحبُكم ؟ يعنى عُبيد الله

(١) الرقتان : الرقة والرافقة ، بلدان على الفرات متصلا البناء .

(٢) الهجمة : الأربعون من الإبل إلى ما زادت . أو ما بين السبعين إلى المائة . والشول : جمع شائلة ، وهى من الإبل ما أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وخف لبنها . والعشار : جمع عشراء ، وهى التى مضى لحملها عشرة أشهر .

(٣) تمانح : تدر فى الشتاء .

ابن قَيس الرقيَّات ، أو عمر بن أبي ربيعة . فقال نَوفَل : حين يقُولان ماذا ؟ فقال : حين يقول صاحبُنا :

خليليَّ ما بالُ المَطيّ كأنمـــا ... نَراها على الأدبار بالقَوم تَنْكُصُ
وقد أَبعد الحادى سُراهُنَّ وانْتحى ... بهن وما يَـأْلو عَجُولٌ مُقَلِّص
وقد قُطِّعَتْ أَعْناقُهنَّ صَـبابةً ... فأَنفُسنا ممّـا تُـكلِّف تَشْخص
يَزِدْن بنـا قُرباً فيزدادُ شوقُنـا ... إذا زاد طُول العَهد والبعدُ يَنْقُص

ويقول صاحبُـكم ما شئت . فقال نَوفل : صاحبكم أشهر بالقول فى الغَزل ، وصاحبُنا أكثر أفانينَ شِعْر . قال : صدقتَ . فلما انقضى ما بينهما من ذكر الشِّعر جعل سَـعيد بن المُسيِّب رَحمه الله يَستغفر الله ويَعْقد بيـده ويَعُد بالخمس كلها حتى وَفّى المـائة . فلما فارقْناه قلت لنوفل : أَتراه استغفر الله من إنشاده الشِّعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كلا ، هو كثير الإنشاد والاستنشاد ، ولـكنى أحسبه للفَخْر بصاحبه .

فضله ابن أبى عتيق هو وابن أبى ربيعة على كثير

وحكى إبراهيم بن أبى عُبيـد الله[1] قال :
أنشد كُثيِّرٌ ابنَ أبى عَتيق كلمته التى يقول فيها :

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنـائلٍ ... قَليـلٍ ولا أَرضى له بقَليـلِ

فقال له : هـذا كلامُ مكافىء ليس بعاشق ! القُرشيّان أصدقُ وأقنع منك : ابن أبى ربيعة حيث يقول :

ليت حَظِّى كطَرفة العين منهـا ... وكَثيرٌ منها القليـلُ المُهَنَّا

وقولُه :

(١) فى بعض أصول الأغانى : « إبراهيم بن أبى عبد الله » . وفى بعض آخر : « إبراهيم ابن عبد الله » .

فعِـدِى نائلاً وإنْ لم تُنيلى إنَّه يُقْنِـع المُحبَّ الرَّجاء

وابن قيس الرقيّات حيث يقول :

رُقَّ بعَيْشِكم لا تَهْجُرينـا ومَنِّينا المُنَى ثم امْطُلينَا
عِدينا فى غَـدٍ ما شئتِ إنَّا نُحب وإن مَطَلْتِ الواعِدينا
فإمّا تُنْجزى عِـدَتى وإمّا نَعيش بما نؤمل منك حِينا
أَغرَّك أنَّنى لا صَبْرَ عِنْدى على هَجرٍ وأنّك تَصْبرينـا
ويومَ تبعتُكم وتركتُ أهلى حنين العَوْدِ[1] يَتْبع القَرِينا

قال : فذكرتُ ذلك لأبى السائب المَخْزومىّ ، ومعه ابن المَولى . فقال : صَدق ابن أبى عَتيق وفَّقه الله ! ألا قال المَدْيون كُثيِّر كما قال هذا حيث يقول :

وأبكى فلا لَيْلى بكتْ من صَبابةٍ لباكٍ ولا لَيلى لذى الوُدِّ تَبْـذُلُ
وأَقْنع[2] بالعُتْبَى إذا كنتُ مُذنباً وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصل

شعره الذى فيه الغناء

والشعرُ الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفَرج أخبار ابن قيس الرقيّات ، هو :

عَلِّلِ القومَ يَشْرَبُوا كى يَـلَذُّوا ويَطْرَبُوا
إنمـا ضَـلَّل الفُؤا دَ غَـزالٌ مُرَبَّب
فَرشـتْه على النَّمـا رِقِ سُعْدَى وزَيْنب
حالَ دون الهوى ودو ن سُرى اللَّيل مُصعب
وسِـياطٌ على أكُـ ـفِّ رِجالٍ تُقلَّب

خبر مصعب بن عبد الرحمن على المدينة

وهـذا الشعر قاله ابنُ قيس الرقيّات فى مُصعب بن عبـد الرحمن بن عوف الزُّهرى ، وكان مروان بن الحَكم ، لمّا كان والياً على المدينة ، ولّاه شُرطته ، فقال :

(١) العود : الجمل المسن وفيه بقية .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « وأخنع » .

إنّى لا أضبط المدينةَ بحَرس المدينة ، فابغنى رجالاً من غيرها . فدعا له بمائتى رجل من أهل أيلة[١] ، فضَبطها ضبطاً شديداً . فبقى إلى أن وَلِى عمرو بنُ سَعيد ابن العاص المدينةَ ، وخَرج الحسينُ بن علىّ رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزُّبير . فقال له عمرو : أُهدم دُور بنى هاشم وآلِ الزبير . فقال : لا أفعل . فقال : انتفخ سَحرك[٢] يابن أُم حُرَيث ! أَلْقِ سَيْفَنا . فألقاه ولَحِق بابن الزُّبير . وولَّى عمرو ابنُ سعيد شُرطَته عَمرو بنَ الزُّبير بن العوّام ، وأمره بهَدْم دُور بنى هاشم وآل الزُّبير . ففعل ، و بلغ منهم كُل مبلغ ، وهدم دار ابن مُطيع التى يقال لها : العَنْقاء . وضرب ابن أخيه محمد بن المُنذر بن الزُّبيرمائةَ سوط . ثم دَعا بأخيه عُروة بن الزُّبير — رحمه الله — لِيَضربه . فقال له محمد : أتضرب عُروة ؟ قال : نعم يا سَبَلانىّ[٣] ، إلا أن تَحتمل ذلك عنه . قال : أنا أحتمله . فضَربه مائةَ سوط أُخرى . ولحق عُروة بأخيه عبد الله بن الزُّبير . وضَرب عمرٌو الناس ضرباً شديداً ، فهربوا منه إلى ابن الزُّبير . فلما أفضى الأَمرُ إلى ابن الزُّبير ظَفِر بأخيه عَمرو بن الزُّبير ، فضَربه بالسِّياط ضرباً مُبرِّحاً ، فمات من الضَّرب . فدفنه فى غير مَقابر المُسلمين ، وقال للناس : إنّ عَمرًا مات مرتدًّا عن الإسلام .

استشهاد المؤلف بشعر لأبى فراس

قلت :

و إلى مُفارقة عمرٍو أخاه ابن الزُّبير ، وصَيرورته مع أعدائه ، و إلى مُفارقة عَقيل بن أبى طالب أخاه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وصَيرورته مع مُعاوية ، وحضوره معه حَرب صِفِّين ، أشار أبو فِراس بقوله :

نَعم دَعت الدُّنيا إلى الغَدر دَعوةً ... أجاب إليها عالمٌ وجَهولُ

وفارق عمرو بنُ الزُّبير شَقيقَه ... وخَلَّى أميرَ المُؤمنين عَقيل

(١) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام .

(٢) السحر : الرئة . وهذه كلمة تقال للجبان .

(٣) السبلانى : الطويل السبلة ، وهى شعرات تكون فى المنحر .

أخبار مالك بن أبي السمح

نسبه وكنيته وشيء من صفاته

هو مالك بن أبي السَّمْح . واسم أبي السَّمح : جابر بن ثعلبة الطّائيّ ، أحد بني ثُعَل ، ثم أحد بني عمرو بن دَرْماء . ويُكنى أبا الوليد . وأُمه قُرشيَّة من بني مَخزوم . وكان أبوه مُنقطعاً إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وكان مالك يَتيماً في حِجْره ، أَوصى به أبوه إليه . وكان ابن جعفر يكفُله ويَمُونُه ، وأدخله وسائر إخوته في دَعْوة بني هاشم .

عمن أخذ الغناء وعمره

وأخذ الغناء عن جَميلة ، ومَعْبد . وعُمِّر حتى أَدرك الدَّولة العبَّاسيَّة . وكان مُنقطعاً إلى سُليمان بن عليّ بن عبد الله بن العبَّاس . ومات في خلافة أبي جعفر المنصور .

شعر للحسين بن عبيد الله فيه

وفي مالك هذا يقول الحُسين بن عُبيد الله بن العبَّاس :

لا عَيْشَ إلا بمالك بن أبي السَّـ ـمْح فلا تَلْحَني ولا تَـلِم
أبيضُ كالبـدر أو كما يَـلْمع الْـ ـبارقُ في حالك من الظُّلم
مَن ليس يَعْصيك إنْ رَشَدتَ ولا يَهْتِكُ حقَّ الإسلام والحُرَم
يُصيبُ من لذَّة الكريم ولا يَجهل آيَ التَّرخيص في[1] اللَّمَم
يارُبَّ يومٍ لنا كحاشية الْـ ـبُرد ويومٍ كذاك لم يَدُم
نعمتُ فيه ومالكَ بن أبي السَّـ ـمح الكريمَ الأخلاق والشِّيم

وقيل : إن مالكاً لما سمع هذا الشعر قال : لا والله ، ولا إن غَويتَ أيضاً أعصيك .

---

(١) اللمم : مقاربة الذنب من غير مواقعة . قال تعالى : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) .

غنى الوليد فلم يطرب ثم غناه ثانية فطرب

وحُكى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك قال لمعبد المُغنِّى : قد آذَتْنى وَلْولتُك هذه ! وقال لابن عائشة : قد آذانى استهلالك هذا ! فاطلُبا لى رجلاً يكون مذهبُه متوسِّطاً بين مذهبَيْكما . فقالا له : مالك بن أبى السَّمح . فكتب فى إشخاصه إليه وسائر مُغنِّى الحجاز المذكورين . فلمّا قَدم مالكٌ على الوليد ، فيمن معه من المُغنِّين ، نزل على العَمْر بن يزيد . فأدخله على الوليد ، فغنّاه فلم يُعجبه . فلمّا انصرف العَمر قال: إن أمير المُؤمنين لم يُعجبه شىء من غنائك . فقال له : جعلنى الله فِداك ! اطلُب لى الإذن عليه مرة أُخرى ، فإن أعجبه شىء مما أُغنِّيه و إلا انصرفتُ إلى بلادى . فلمّا جَلس الوليدُ مجلس اللَّهو ذَكره العَمر ، فطلب له الإذن وقال له : إنّه هابك فَحصِر ، فأُذن له . فبعث إليه . فأمر مالكٌ الغُلام فَسقاه ثلاث صُراحيّاتٍ[1] صِرْفاً ، وخَرج حتى دخل عليه يَخْطر فى مِشيته . فلما بلغ باب المجلس وقف ولم يُسلِّم ، وأخذ بحَلْقة الباب فقَعْقَعها ، ثم رفع صوتَه فغنَّى :

لا عَيش إلا بمالك بن أبى السَّـ ـمْح فلا تَلْحَنى ولا تَلُمِ

فطرب الوليدُ ورفع يديه مادًّا لهما إليه حتى بان إبطاه ، وقام فاعتنقه وقال له : اُدْن يابن أخى . فدنا حتى اعتنقه . ولما انتهى مالكٌ إلى قوله :

أَبيضُ كالسَّيف أو كما يلمع الـ ـبارقُ فى حالِك من الظُّلَمِ

قال له الوليد بن يزيد :

أَحولُ كالقِرد أو كما يرقُب السَّـ ـارقُ فى حالكٍ من الظَّلم

وكان مالك طويلاً أحنى فيه حَوَل .

ثم أخذ مالكٌ فى صوته ، فلم يزالوا فيه أيّاماً . ثم أَجزل له العطيَّة حين أراد الانصراف .

(١) الصراحيات : آنية للخمر .

بين ابن عائشة وابن أبى السمح فى مقتل الوليد

وحكى ابن عائشة قال :

حضرنا الوليد بن يزيد يوم قُتل ، وكان معنا مالك بن أبى السَّمح ، وكان من أحمق الخَلق ، فلما قُتل الوليد قال : اهرُب بنا . فقُلت : ومايُريدون منّا ؟ قال : وما يُؤمنك أن يأخذوا رأسَيْنا فيجعلوا رأسه بينهما ليحسِّنوا بذلك أمرهم .

قال ابن عائشة : فما رأيت منه عقلاً قطُّ قبل ذلك اليوم .

أخبار النَّهْدِىّ والوليد بن عُقْبَة

ابن أبى معيط

حديث إيغار زهير صدر الحارث الغسانى على النهديين

أمَّا النَّهدىُّ ، فذُكر أنّ الحارث بن مارية الجَفْنِىّ الغسَّانى كان مُكرِماً لزُهير ابن جَنَاب الكَلْبى ، يُنادمه ويُحدِّثه[1] . فقدِم على المَلك رجلان من بنى نَهْد ابن زَيد ، يُقال لهما : سَهْل ، وحَزْن ، ابنا رِزاح . وكان عندهما حديثٌ من أحاديث العرب وأخبارها . فاجتباهما الملكُ ، ونَزلا منه المكانَ الأثير . فحسدهما زُهير بن جَناب ، فقال : أيها الملك ، هما والله عَينُ المُنذر عليك — يعنى المُنذر الأكبر جدَّ النُّعمان بن المُنذر — وهما يكتُبان إليه بعَوْرتك وخَلَل ما يريان منك . فقال : لا . فلم يزل به زُهير حتى أوغر صدرَه . وكان إذا رَكب يبعث إليهما بعيرَيْن . فبعث إليهما بناقةٍ واحدة ، فعَرفا الشرَّ ، فلم يركب أحدُهما ، فقال له الآخر :

فإلّا تَجَلَّلْها يُعالُوكَ[2] فوقَها ... وكيف توقّى ظهرَ ما أنت راكِبُهْ

فرَكِباها هو وأخوه ، ومُضى بهما فقُتلا .

وهذا البيتُ من أبياتٍ للوليد بن عُقْبة ، وهو الشِّعر الذى فيه الغِناء ، وافتتح به أبو الفَرج أخبار النَّهدىّ والوليد . وأبيات الوليد :

نَعم[3] قتلُوه كى يكونُوا مكانَه ... كما غَدرتْ يوماً بكسرى مَرازِبُه

بنى هاشمٍ خَلُّوا[4] سِلاح ابن أُختكم ... ولا تَنْهبُوه لا تَحِلُّ مَناهبُه

---

(١) فى بعض الأصول من الأغانى : « يحادثه » .

(٢) تجللها ، أى تتجللها ، مضارع حذفت تاؤه . وتجلل الشىء : علاه . وعالاه : رفعه .

(٣) فى بعض أصول الأغانى : « هم » مكان « نعم » .

(٤) فى بعض أصول الأغانى : ردوا » مكان « خلوا » .

حديث مقتل رزاح

قيل : إنّ الملك الحارث بَحث عن أمر النَّهديَّيْن بعد ذلك فوجده باطلاً ، فشَتم زُهيراً وطَرده . فانصرف إلى بلاد قَومه . وقَدم رِزاح أبو الغُلامين ، فأكرمه المَلك وأعطاه دِيَة ابنَيه . و بَلغ زهيرَ بن جَناب مكانُه ، فدعا ابناً له يقال له : عامر ، وكان من فِتْيان العرب لساناً و بياناً ، فقال له : إنّ رِزاحاً قد قَدِم على الملك ، فالْحق به واحتَلْ فى أن تكفِيَنيه ، واذْكُرْنى عند الملك ، وتبرَّأْ منِّى . وأثَّر به آثاراً . فخرج الغلامُ حتى قَدِم الشأمَ ، فتلطَّف للدُّخول على الملك حتى وَصل إليه. فأعجبه مارأى منه ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا عامرُ بن زُهير بن جَناب . قال : فلا حيَّاك الله ولا حيّا أباك الغادرَ الكَذُوب الساعىَ ! فقال له : نعم ، فلا حيّاه الله ! انظُر أيها المَلك ما صَنع بظَهرى . وأَراه الضَّرْبَ . فقَبِل منه ذلك وأَدخله فى نُدمائه . فبينا هو يوماً يُحدِّثه إذ قال له : أيها الملك ، إن أَبى و إن كان مُسيئاً فلستُ أَدَع أن أقول الحقَّ ، قد والله نَصحك أبى . ثم أنشأ يقول :

فيالكِ نَصْحةً لَمّا نَذُقْهـا ... أراها نَصحةً ذهبتْ ضَلالَا

ثم تركه أيّاماً ، وقال له بعد ذلك : أيها الملك، ماتقول فى حَيَّة قَطعتَ ذَنبها و بقى رأسُها ؟ قال : ذاك أبوك وصَنيعه بالرَّجُلين ما صنع . قال : أبيتَ اللَّعن ! والله ما قَدم رِزاح إلّا ليثأر بهما . فقال : وما آيةُ ذلك ؟ قال : اسْقه الخمر ثم ابعث إليه عيناً يَأْتك بخبره . ففَعل ، فلما انتشى صَرفه إلى بيته ومعه بنتٌ له ، و بعث إليه عُيوناً . فلما دخل قُبَّته ، قامت ابنتهُ تُسانده ، فقال :

دَعينى من سِنادك إنّ حَزْناً ... وسَهلاً ليس بعدهما رُقُودُ
ألا تَسلين عن شِبْلىَّ ماذا ... أَصابهما إذا اهْترش[1] الأُسود
فإنّى لو ثأرتُ المرءَ حَزناً ... وسَهلاً قد بدا لكِ ما أُريد

(١) اهترشت الأسود : تقاتلت و تواثبت .

فرجع القومُ إلى المَلك فأخبروه بما سَمِعوا ، فأمر بقَتْل النَّهـدى ، وردَّ زُهيراً إلى موضعه .

وأما الوليد بن عقبة

نسب الوليد بن عقبة

فيُكنى أبا وهب . وهو أخو عُثمان بن عفَّان رضى الله عنه لأُمه أَروى بنت كُريز . وأُمهما البَيضاء ، عمّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

تولية الكوفة

وكان من فِتيان قُريش وشُجعانهم وكُرمائهم ، وكان فاسقاً . ولّاه عُثمان رضى الله عنه الكُوفةَ ، فشَرب الخمر ، وشُهد عليه بذلك ، فحدَّه عثمانُ رضى الله عنه وعَزله .

وذُكر أنّ سَبب توليته الكُوفة أن عُثمان رضى الله عنه لم يكُن يجلس معه على سَريره إلا العبّاس بن عبد المطلب ، وأبو سُفيان بن حَرب ، والحَكم بن أبى العاص ، والوليد بن عُقبة . فأقبل الوليدُ يوماً فجلس ، ثم أقبل الحكم ، فلمّا رآه الوليدُ زَحَل[1] له عن مَجلسه . فلما قام الحَكم قال الوليد : والله يا أمير المُؤمنين لقد تلَجلج فى صَدْرى بَيْتان قلتُهما حين رأيتُك آثرت عمَّك على ابن أُمك . فقال له عثمان : إنه شَيخ قُريش ، فما البيتان اللذان قلتَ ؟ قال : قلتُ :

رأيتُ لعمِّ المرء زُلْفَى قَرابةٍ ... دُوَيْنَ أَخيه حادثاً لم يكن قِدْمَا

فأمَّلتُ عَمراً أن يَشِبّ وخالداً ... لكى يدعُوانى يومَ مَرْحمةٍ[2] عمّا

يعنى : عمراً ، وخالداً ، ابنى عُثمان . فرقّ له عثمان وقال : قد وليتُك العراق ، يعنى الكوفة .

سيرته فى الكوفة

قيل :

---

(١) زحل : تنحى وتباعد .

(٢) فى بعض الأصول : « يشيب » مكان « يشب » و « مزحمة » مكان « مرحمة » .

لما ولاه عُثمان رضى الله عنه الكوفةَ، وعليها سعدُ بن أبى وقّاص، فأُخبر بقُدومه فقال: وما صَنع؟ قال: وقف فى السُّوق فهو يحدِّث الناسَ هناك، ولسنا نُنكر شيئاً من شأنه. فلم يَلبث أنْ جاءه نصفَ النَّهار، فاستأذن على سعد، فأذِن له، فسلَّم عليه بالإمْرة وجلس معه. فقال له سعد: ما أَقدمك أبا وهب؟ قال: أحببتُ زيارتك. قال: وعلى ذلك أجئتَ بريداً؟ قال: أَنا أَرزنُ من ذلك، ولكنَّ القوم احتاجوا إلى عملهم فسرَّحونى إليه، وقد استَعملنى أمير المُؤمنين على الكوفة. فمكث طويلاً ثم قال:

خُذينى وجُرِّينى ضباعُ وأَبْشِرِى ... بلحمٍ امرىءٍ لم يَشْهدِاليومَ ناصِرُهْ

فقال الوليد: أمَا والله لأنا أقْول للشِّعر وأَرْوى له منك! وإن شئتَ لأَجبتُك، ولكنى أَدع ذلك لما لا تَعلم[1]. نعم والله، وقد أُمرتُ بمُحاسبتك والنَّظرِ فى أمر عُمّالك. ثم بَعث إلى عُمّاله فحَبسهم وضيَّق عليهم. فكتبوا إلى سعد يَسْتغيثون. فكلمه فيهم، فقال: أَوَ لِلْمعروف عندك موضع؟ قال: نعم والله! فخلِّى سبيلَهم.

وذُكر أنّ الوليد صلَّى بأهل الكُوفة الغداةَ أَربع رَكعات، ثم التفت إليهم فقال: أَزيدكم؟ فقال عبدُ الله بن مَسعود رضى الله عنه: ما زِلْنا معك فى زيادة منذُ اليوم.

شعر الحطيئة فى شربه الخمر

وقال الحطيئة فيه، حين شُهد عليه بشُرب الخمر:

شَهد الحُطيئةُ حين يَلْقى رَبَّه ... أَنَّ الوليدَ أَحقُّ بالعُذْرِ

نادَى وقد تمَّت صلاتُهمُ ... أَأَزيدكم سُكْراً وما يدرى

فأبَوا أَبا وَهْبٍ ولو أَذِنوا ... لقَرنْتَ بين الشَّفع والوَتْر

كَفُّوا عِنانَك إذ جرَيْت ولو ... تركُوا عِنانَك لم تَزل تَجْرى

(١) فى بعض أصول الأغانى: «لما تعلم».

وقال الحُطيئة أيضاً :

تكلّم فى الصّلاة وزاد فيها ... عَلانيةً وجاهَر بالنِّفاقِ
ومَجَّ الخمر فى سَنَن المُصلَّى ... ونادَى والجميعُ إلى افتراق
أَزيدكمُ على أن تحمدونى ... وما لكمُ وما لى من خَلاق

حده وحديث ذلك

وذُكر أنَّ الوليد تَقيَّأ الخمر فى المِحراب وقرأ فى الصلاة رافعاً صَوْته :

عَلِق القلبُ الرَّبَابَا ... بعد ما شابتْ وشابَا

فشَخص أهل الكوفة إلى عثمان فأخبروه بخَبره ، وشَهدوا عليه بشُربه الخمر . فأَتى به وأَمر رجلاً ليضربَه الحدَّ . فلما دَنا منه قال : نَشدتُك الله وقَرابتى من أمير المُؤمنين . فخاف عليُّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن يُعطَّل الحدُّ ، فقام إليه فحدَّه . فقال الوليد : نَشدتُك الله والقرابة ! فقال له علىٌّ : اسكت يا أبا وَهْب . فإنما هلكتْ بنو إسرائيل بتَعطيلهم الحُدود ! وقال : لتَدْعونِّى قُريش بعد هذا جلاَّدها .

وقيل :

إنّ عُثمان رضى الله عنه لمَّا قال لعلىّ رضى الله عنه : قُم فاضربه . فقال له الحسن : مالك ولهذا ؟ يَكفيك غيرُك . فقال علىٌّ لعبد الله بن جعفر : قُم فاضربه . فضربه بمِخْصرة[1] فيها سيرٌ لها رأْسان . فلما بلغ أَربعين قال : حَسْبُك ! أَمْسك ، جَلد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَربعين ، وجَلد أبو بكر أَربعين ، وكمَّلها عُمر ثمانين ، وكُلٌّ سُنَّة .

شعر أبى زبيد فى هذا

وقيل :

كان أبو زُبيد الطَّائى نديماً للوليد بن عُقبة أَيَّام ولايته الكُوفة . فلما شُهد عليه بالسُّكر من الخمر وخَرج عن الكوفة ، قال أبو زبيد الطائى :

(١) المخصرة : العصا ، والمقرعة ، ونحوهما .

مَن يَرَى العِيرَ لابن أَروى على ظَهـ ـر المَرْوَرَى حُداتُهن عِجَالُ
يعرف الجاهلُ المُضلَّل أن الـ ـدَّهر فيه النَّكْراء والزِّلزال
ليت شِعرى كذا كم العهدِ أم كا نُوا أَناساً كمن يزول فزَالوا
بعد ما تَعْلمين يا أُم زَيْد كان فيهم عِزٌّ لنا وجَمال
ووُجوهٌ تَودُّنا[1] مُشرقاتٌ ونَوالٌ إذا يُعَدُّ النَّوال
ولعمرو الإلهِ لو كان للسَّيْـ ـف مَصالٌ وللسان مَقال
ما تناسيتُك الصَّفاءَ ولا الوُدَّ ولا حال دونك الأَشْغال
قولُهم شُربك الحَرامَ وقد كا ن شرابٌ سوى الحَرام حَلال
وأَبَى الظَّاهرُ العَداوةِ إلاّ شَنآناً وقولَ ما لا يُقال
مَن يَخُنْك الصَّفاء أو يَتبدَّل أو يَزُل مثل ما تزول الظِّلال
فاعلَمَنْ أَنَّنى أَخوك أَخو الوُدّ حياتِى حتى تزول الجِبال
ولك النَّصر باللِّسان وبالكَـ ـفِّ إذا كان لليدَيْن مَصال

مثل من تقريبه لأبى زبيد

وذُكر أنَّه لما قَدم الوليدُ بن عُقبة الكوفةَ، قَدم عليه أَبو زُبيد الطائى، وهو نَصْرانىّ، فأَنزله دار عَقيل بن أبى طالب على باب المَسجد. فكان مما احتَجّ به على الوليد أَهلُ الكوفة أَنَّ أَبا زُبيد كان يخرُج إليه من داره يخترق المَسجد فيجعله طريقاً، ويسمُر عنده ويشرب معه، ثم يخرُج فيشقّ المَسجد وهو سكران.

ما نزل فيه من القرآن

وقد ذُكر أنّ قولَ الله تعالى: (يأيُّها الَّذين آمَنُوا إنْ جاءَكم فاسِقٌ بنَبأٍ فتبيَّنوا أَن تُصيبوا قوماً بجَهالةٍ فتُصْبحوا على ما فَعلتُم نادمين) إنما نزل فى الوليد ابن عُقبة هذا. كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم بَعثه إلى بنى المُصطلق مُصدّقاً، فلمّا رأوه أقبلوا نحوه، فهابهم. فرجع إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبره أنهم

(١) فى بعض أصول الأغانى: «بودنا» مكان «تودنا».

قد ارتدُّوا عن الإسلام . فبعث النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم خالدَ بن الوليد وأمره أن يتثبَّت ولا يَعْجل . فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عُيونه ، فجاءوه فأخبروه أنهم مُتمسِّكون بالإسلام ، وسمعوا آذانَهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالدٌ فرأى ما أعجبه ، فرَجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره .

الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين امرأته

وحدَّث عليُّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أنّ امرأة الوليد بن عُقبة جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تَشتكى الوليد ، وقالت: إنه يَضربها . فقال لها : ارجعى وقُولى له : إنّ رسول الله قد أَجارنى . فانطلقت فمكثت ساعةً ثم رجعتْ ، فقالت : ما أقلع عنى . فقطع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هُدبة من ثوبه ثم قال : امضى بها ثم قولى : إن رسول الله أجارنى . فانطلقت ، فمكثت ساعة ثم رجعت فقالت : يا رسول الله ، ما زادنى إلا ضرباً . فرفع صلَّى الله عليه وسلم يَده وقال : اللهم عليك الوليد ! مرَّتين أو ثلاثاً .

قدوم أمه به على النبى صلى الله عليه وسلم وهو صبى

وقيل :

إنّ الوليد بن عُقبة قال : لما فَتح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مكة ، جعل أهل مكة يأتُونه بصِبْيانهم، فيدعو لهم بالبركة ويَمسح بيده على رُءوسهم . فجىء بى إليه وأنا مُخَلَّق[1] ، فلم يَمسَّنى ، وما مَنعه إلا أن أُمى خلَّقتْنى بخَلُوق ! فلم يَمسَّنى من أجل ذلك .

حديثه مع جندب حين قتل الساحر

وقيل :

كان عند الوليد بن عُقبة ، وهو والى الكُوفة ، رجلٌ ساحر ، فجعل يدخُل فى جَوف بقرة ويخرُج . فرآه جُنْدَب بن كَعب ، فذَهب إلى بيته فاشتمل على سَيْفٍ ، فلما دخل الساحرُ فى البقرة قال جُنْدب : أتأتُون السِّحر وأنتم تُبصرون !

(١) مخلق : مطيب بالخلوق ، وهو الزعفران .

ثم ضَرب وسط البقرة فقطعَها وقطع الساحر . فانذعر الناسُ . فسجنه الوليـدُ ، وكتب بذلك إلى عثمان رضى الله عنه . وكان السجّان يفتح له باللّيل فيَذهب إلى أهله ، فإذا أصبح دخل السجن . وكان على السِّجن رجلٌ ، فلما رأى جُنْدباً يقوم و يُصبح صائماً ، قال : والله إنّ قَوماً هذا شرُّهم لقومُ صِدْقٍ . فوكّل بالسجن رجلاً ودخل الكوفةَ ، وكان السجنُ خارجاً ، فسأل عن أفضل أهل الكوفة . فقالوا : الأَشعثُ بن قيس . فاستضافه . فجعل الأشعثُ ينامُ الليل ثم يُصبح فيدعو بغَدائه . فخَرج من عنده فسأل : أى أهل الكوفة أفضل ؟ فقالوا : جرير بن عبد الله . فوجده ينام الليل ثم يُصبح فيدعو بغَدائه . فاستقبل السجّانُ القبلة وقال : ربِّى ربُّ جُنْدب ، ودينى على دين جُندب ، وأَسلم .

ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم لابن صوحان وجندب

وقيل :

لمّا انصرف رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم من غَزاة بنى المُصطلق ، نَزل رجلٌ فَسَاق بالقوم ورَجز ، ثم آخر فساق ورَجز . ثم بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُواسى أصحابه ، فنزَل فَساق بالقَوْم ورَجز ، وجعل يقول : جُنْدَبٌ وما جُنْدب ! والأَقْطعُ الخير زَيد ! فدنا منه أصحابُه فقالوا : يا رسول الله ، ما يَنفعنا مَسيرُك مخافةَ أن تلسعك دابة أو تُصيبك نكبةٌ . فركب. ودَنَوْا منه وقالوا : قُلت قَولاً ما نَدرى ما هو ! قال : وما ذاك ؟ قالوا : قولك : جُندب وما جُندب ، والأقطع الخَير زيد . قال : رجلان يكونان فى هذه الأُمة يَضرب أَحدُهما ضَربةً تَفْرق بين الحق والباطل ، وتُقطع يد الآخر فى سبيل الله فيُتْبع اللهُ آخرَ جَسده بأوّله .

وكان زَيد بن صُوحان قُطعت يده فى سبيل الله يوم جَلُولاء[1] ، وقُتل يوم الجَمل مع علىّ رضى الله عنه . وجُنْدب هو الذى تقدَّم ذكره .

(١) جلولاء : يوم للمسلمين على الفرس .

ابن العاص بن أمية بعد الوليد على الكوفة

ولما عَزل عُثمانُ رضى الله عنه الوليدَ بن عُقْبة عن الكوفة أَمَّر عليها سعيد ابن العاص بن أُميَّة ، ولما أقبل عائداً إلى الكُوفة جعل يَرتجز فى طريقه :

ويلٌ لشبَّان[1] العراق منِّى كأننى سَمْعَمَعٌ[2] من جِنِّ

فلما قَدم الكوفةَ قال : اغسلوا هذا المِنْبر ، فإن الوليد كان رِجْساً نَجِساً . فلم يَصْعده حتى غُسل ، عَيباً على الوليد . وكان الوليد أسنَّ منه وأسخى وألين جانباً وأرضى عندهم . فقال بعضُ شعرائهم :

وجاءنا من بعده سَعيدُ ينقُص فى الصَّاع ولا يَزيدُ

شعر الوليد فى مقتل عثمان و النعى على على فيما أخذ

ولما قُتل عثمان رضى الله عنه ، أَرسل علىٌّ رضى الله عنه فأَخذ ما كان فى داره و إبلاً من إبل الصَّدقة . فقال الوليدُ بن عُقبة يَرثى عُثمان أخاه و يُعرِّض بعلىٍّ رضى الله عنه ، وهو الشِّعر الذى فيه الغناء :

ألا مَن لليلٍ لا تَغور كواكبُه إذا غار[3] نَجمٌ لاح نَجم يُراقبُه
بنى هاشمٍ رُدُّوا سلاحَ ابن أُختكم ولا تَنْهبوه لا تَحلُّ مَناهبه
بنى هاشمٍ لا تَعْجَلونا فإنّه سواءٌ علينا قاتلاه وسالبه
فقد يُجبر العَظْمُ الكَسير ويَنْبرى لذى الحقِّ يوماً حقُّه فيُطالبه
وإنّا وإيّاكم وما كان منكمُ كصَدْع الصَّفَا لا يَرأب الصَّدعَ شاعبه
لعمرُك لا أنسى ابنَ أروى وقَتْلَه وهل يَنْسينّ الماءَ ما عاش شاربه
هُمُ قَتلوه كى يكونُوا مكانَه كما فَعلت[4] يوماً بكسرى مَرازبه
وإنّي لمُجتابٌ إليكم بجَحْفل يُصِمُّ السَّميعَ جَرْسُه[5] وجَلائبه

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ويل نسيات » .
(٢) السمعمع : السريع الخفيف .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « لاح » مكان « غار » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « غدرت » مكان « فعلت » .
(٥) الجرس : الصوت .

للفضل فى الرد عليه

فأجابه الفضلُ بن العباس بن عُتبة بن أبى لهب :

فلا تسألونا بالسّلاح فإنّه أُضيع وألقاه لدى الرَّوع صاحبُه
وشَبّهْته كسرى وقد[1] كان مثلُه شَبيهاً بكسرى هَدْيه ومَذاهبه

شعر الوليد فى التحريض على الأخذ بثأر عثمان

وقال الوليدُ يرثى عُثمان و يُحرِّض معاوية بن أبى سُفيان على أَخذ ثأره :

والله ما هندٌ بأُمك إن مضى النَّـ ـهارُ ولم يثأر بعُثمانَ ثائرُ
أيقتُل عبدُ القوم سيِّدَ أهلِه ولم تَقتلوه ليت أُمَّك عاقر
و إنَّا متى نَقْتلهمُ لا يُقِدْ بهم مُقِيدٌ فقد دارتْ علينا الدَّوائر

لأشجع السلمى فيه وفى أبى زبيد وقد مر بقبريهما

وتُوفى الوليد بن عُقبة فُويق الرقّة ، ومات أبو زُبيد صديقه هناك ، فدُفِنا جميعاً فى موضع واحد ، فمرَّ بقَبْريهما أشجع السُّلمى فقال :

مررتُ على عظام أبى زُبيدٍ وقد لاحتْ ببَلْقعة[2] صَلُودِ
وكان له الوليد نديمَ صِدْقٍ فنادم قبرُه قبرَ الوليد

الأمين فى آخر عهده

ثم استطرد أبو الفرج بذِكْره حكايةً تتعلّق بقول الوليد « هم قتلوه » فذكرها : حَكى إبراهيم بن المهدىّ قال :

أرسل إلىَّ الأمينُ محمد بن زُبيدة فى ليلة من ليالى الصَّيف مُقمرة ، فقال : يا عَم ، إنّ الحرب بينى و بين طاهر قد سكنت ، فصِرْ إلىَّ ، فإنى إليك مُشتاق . فجئتُه وقد بُسط له على سَطح زُبيدة ، وعنده سليمانُ بن جَعفر ، وعليه كساء رُوذَبارِىّ[3] وقَلنسوة طويلة ، وجَواريه بين يديه ، وضَعفٌ جاريتُه عنده . فقال لها : غَنِّى ، فقد سُررتُ بعُمومتى . فاندفعت تُغنيه :

هُم قتلوه كى يكونُوا مكانَه كما فعلتْ يوماً بكسرى مرازبُه
بنى هاشم كيف التَّواصُل بيننا وعند أخيه سيفُه ونجائبه

(١) فى الاستيعاب : «وما» . (٢) البلقعة : الأرض القفر . والصلود : الفلاة الصلبة التى لا تنبت شيئاً.
(٣) روذبارى : نسبة إلى روذبار : مكان .

فغضب وتطيَّر وقال : ويحكِ ! ما قصّتك ؟ اثنى وانتبهى وغنِّينى ما يسُرنى . فاندفعت وغنَّت :

هـــذا مَقامُ مُطَرَّدٍ[1] هُدِمت منـازله ودُورُهْ

فازداد تطيُّراً . ثم قال : ويحك ! أنتبهى وغَنِّى غير هذا . فغنَّت :

كُليبٌ لَعمرى كان أكثرَ ناصراً وأيْسر جُرْماً منك ضُرِّج بالدَّمِ

فقال لها : قُومى إلى لعنة الله ! فوثبتْ ، وكان بين يديه قَدحُ بِلّور كان لُحِبِّه إيَّاه سمَّاه « محمداً » باسمه ، فأصابه طرفُ ذَيلها فسقط على بعض الصَّوانى فانكسر وتفتَّت . فأقبل علىَّ وقال : أرى والله يا عم أن هذا آخر أمرنا . فقلتُ : كلا ، بل يُبقيك الله يا أمير المُؤمنين ويسُرّك . قال : ودِجلة والله هادئةٌ ما فيها صوت مِجْداف ولا أحد يتحرَّك ، ولا هى إلا كالطَّست هادئة ، فسمعتُ هاتفاً يَهْتف : (قُضى الأمر الذى فيه تَسْتفتيان) . فقال لى : أسمعتَ يا عمِّ ما سمعتُ ؟ فقلت : وما هو ؟ وقد والله سمعتُه . فقال :الصوتُ الذى جاء الساعةَ من دِجلة . فقلت : ما سمعت شيئاً ولا هذا إلا توهُّم . وإذا الصوت قد عاد يقول : (قُضى الأمر الذى فيه تَستفتيان) . فقال : انصرف يا عَم إلى بيتك أثابك الله بخير ، فمُحالٌ إلا أن تكون الآن قد سمعتَ ما سمعتُ . فانصرفتُ ، وكان آخر العهد به .

(١) مطرد : مطرود .

أخبار إبراهيم الموصلي

نسبه وأصله

هو إبراهيم بن مَاهان . وأصله من الفُرس ، وله بيتٌ شريف فى العَجم . وكان يقال له : إبراهيم بن مَيْمون . وسببُ نِسبته أنّه كَتب إلى صديق له فعَنْون كتابَه : « من إبراهيم بن ماهان » . فقال له بعض فِتيان الكُوفة : أما تستحى من هذا الاسم ؟ فقال : هـذا اسم أبى . قال : فغيِّره . قال : كيف أُغيّره ؟ فأخذ الكِتاب فمحا « ماهان » وكتب مَيمون .

أمه

وأُمه من بنات الدَّهاقين الذين هَربوا من فارس لمَّا هرب أبو إبراهيم . فنزلوا جميعاً الكُوفةَ ، فتزوَّجها « ماهان » بالكُوفة فولدت له إبراهيم . ومات فى الطاعون الجارف ، وخلَّف إبراهيم طفلاً .

مولده ووفاته

وكان مَولده سنة خمسٍ وعشرين ومائة . وتُوفى ببغداد سنة ثمانٍ وثمانين ومائة . وعُمِّر ثلاثاً وستّين سنة .

ولاؤه

وكان مُقام إبراهيم مع أُمه وأَخواله حتى تَرعرع ، فكان مع ولد خُزَيمة ابن خازم . فبهذا السَّبب صار ولاؤه لبنى تَميم .

سبب تلقيبه بالموصلى

و إنما قيل له : الموصلىّ ، لأنه لما نشأ وأَدرك صَحِب الفِتْيان واشْتهى الغِناء ، فطَلبه . واشتدّ أخواله عليه فى ذلك و بَلغوا منه ، فهرب إلى الموصل فأقام بها نحواً من سنة ، فلمّا رَجع إلى الكوفة قال له إخوانُه من الفِتيان : مرحباً بالفَتى المَوصلى . فغلبتْ عليه .

أول من صحب وغنى عنده

وأوّل هاشميّ صَحِبه إبراهيمُ وغَنَّى عنده : عيسى بن سُليمان بن علىّ ، أخو جَعفر ، ومحمّد ، وكان فَتاهم ظَرْفاً ولَهْواً وسماحةً . وأول خليفة سَمِع غناءه المَهدىُّ ، وُصف له فأخذه من عِيسى .

حبس المهدى له فى شربه الخمر ومنعه إياه من الدخول على ابنيه

وحكى إبراهيمُ الموصلىّ قال :

كان المَهدىُّ لا يَشرب ، فأرادنى على مُلازمته وتَرْك الشُّرب ، فأبيتُ عليه . وكنتُ أَغيب عنه الأيَّامَ ، فإذا جئتُه جئتُه مُنْتشِياً . فغاظه ذلك ، فضَربنى وحَبسنى ، فَحذقت الكتابةَ والقراءة فى الحَبس ، ثم دَعانى يوماً فعاتبنى على شُربى فى منازل النَّاس والتبذُّل مَعهم . فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنما تعلمتُ هذه الصنعةَ للذَّتى وعِشْرة إخوانى ، ولو أَمكننى تركُها وجميعَ ما أنا فيه لتركتُها والله[1] . فغَضب غضباً شديداً وقال : لا تدْخُل على مُوسى وهارون ، فوالله إن دخلتَ عليهما لأفعلنَّ ولأصنعنَّ . فقلتُ له : نَعم . ثم بلغه أنِّى كنتُ معهما فى نُزهة لهما ، ومعهما أبان الخادم ، فسعى بهما وبى إلى المَهدىِّ وحدّثه بما كُنَّا فيه . فدعانى فسألنى ، فأنكرتُ . فأَمر بى فجُرِّدتُ ، فضَربنى ثلثمائة وستِّين صوتاً . فقلتُ له ، وهو يَضربنى : إنّ جُرمى ليس من الأَجرام التى يحلُّ بها سَفْكُ دَمى ، والله لو كان سرُّ أُبنَيْك تحت قَدمىّ مارفعتُهما عنه ولو قُطِّعتُ ، ولو فعلتُ ذلك كنتُ فى حال أبان السَّاعى العَبد ! فلما قلتُ له هذا ، ضَربنى بالسَّيف فى جَفْنه ، فسقطتُ مغشيًّا علىَّ ساعةً ، ثم فَتَّحتُ عينَىَّ فوَقعتا على عينَى المهدىِّ ، فرأيتُهما عينَى نادم . وقال لعبد الله بن مالك : خُذه إليك . فأَخرجنى عبدُ الله إلى داره ، وأنا أرى الدُّنيا فى عَينىَّ صَفراء وخَضراء وحَمراء ، من حَرِّ السَّوط ، وأَمره أن يَتَّخذ لى شَبيهاً بالقَبر فيَحبسنى فيه . فدعا عبدُ الله بكَبْشٍ فذُبح وسُلخ وأُلبسنى جلْده ليَسْكُن ألمُ الضَّرب ، ودَفعنى إلى خادم له فصيَّرنى فى ذلك القَبر ، ووَكل بى جارية . فتأذَّيتُ بنزٍّ كان فى ذلك القبر وبالبقِّ ، وكان فيه خَلاء أستريح إليه . فقلتُ للجارية : اطلُبى لى آجرَّةً عليها فَحم وكُندُر يذهب عنّى هذا البقّ . فلما دَخَنتْ أَظلم القبرُ علىَّ حتى كادت نَفْسى تخرُج ، فاسترحتُ إلى النَّز وأَلصقتُ أَنفى به حتى خَف الدُّخان . فلما ظننتُ أنى قد استرحتُ مما كنتُ فيه ، إذا حيَّتان

(١) فى بعض أصول الأغانى : « لله جل وعز » .

مُقبلتان نحوى من شقِّ القَبر يَدوران حولى بخَفيف شَديد . فهمَمْت أن آخذ واحدةً بيدى اليُمْنى والأُخرى بيدى اليُسرى ، فإمّا علىّ و إمّا لى ، ثم كُفيتُهما . فدَخلتا فى الثَّقْب الذى خرجتا منه . فمكثتُ فى ذلك القبر ما شاء الله .

وقال إبراهيم فى مَحبسه ذلك :

ألا طال لَيْلى أُراعى النُّجوم ... أُعالج فى السَّاق كَبْلاً ثقيلَا
بدارِ الهُموم[1] وشَرِّ الدِّيار ... أُسامُ بها الخَسْفَ صَبراً جَميلا
كثيرَ الأخلَّاء عند الرَّخاء ... فلمَّا حُبستُ أراهم قَليلا
لطُول بلائى قلَّ الصَّديقُ ... فلا يأمنَنَّ خَليلٌ خَليلا

قال :

ثم أخرجنى المهدىُّ وحلَّفنى بالطَّلاق والعِتاق وكلّ يَمين لا فُسحةَ فيها ألا أَدْخُل على ابنَيْه : موسى وهارون أبداً ، ولا أُغنيهما . وخَلَّى سبيلى .

طلب الهادى له

فلما مات المهدىُّ ووَلِى موسى الهادى الخلافةَ استتر إبراهيمُ منه ولم يظهر له ، بسبب الأَيمان التى حلَّفه بها . وكان منزلُه ومنازل أهله تُكبس فى كل وقت . وأهله يُروَّعون بطَلَبه ، حتَّى أصابوه ، فمضَوْا به إليه . فلما حَضر عنده غنَّاه لحناً فى شِعره :

يابن خَير المُلوك لا تَتْرُكَنِّى ... غَرضاً للعدُوِّ يُرْمَى حِيالِى
إنَّنى فى هَواك فارقتُ أَهلى ... ثم عَرَّضتُ مُهْجتى للزَّوال
ولقد عِفْتُ فى هَواك حَياتى ... وتَغرَّبتُ بين أَهلى ومَالى

فموَّله الهادى وخوَّله ، وأَخَذ منه فى يوم واحدٍ مائة ألف وخَمسين أَلف دينار .

حديث حماد عن عراء ابراهيم وكرمه

وحُكى أنّ إسحاق بن إبراهيم قال لابنه حمَّاد :

(١) فى بعض الأصول : « الهوان » .

نظرتُ إلى ما صار إلى جَدِّك من الأموال والصِّلات ، وثمن ما باع من جوائزه ، فوجدته أربعةً وعشرين ألفَ ألفِ دِرهم، سوى أرزاقه الجارية ، وهى عشرةُ آلاف درهم فى كل شهر ، سوى غلّات ضياعه ، وسوى الصِّلات النَّزرة التى لم يُحصها . ولا والله ما رأيتُ أكرمَ منه ، كان له طعامٌ مُعدٌّ أبداً فى كلّ وقت . قال حماد : يا أبى ، كيف يُمكنه ذلك ؟ قال : كان له فى كل يوم ثلاثُ شِياهٍ : واحدة مقطَّعة فى القُدور ، وأُخرى مَسْلوخَة معلَّقة ، وأُخرى حيَّة ، فإذا أتاه قَوم طَعِموا ما فى القُدور ، و إذا فَرغتْ قُطعت الشاة المُعلَّقة ونُصبت القُدور ، وذُبحت الشَّاة الثالثة وعُلِّقت ، وأُتى بأُخرى وهى حَية فى المطبخ . وكانت وَظيفته لطعامه وطِيبه وما يُتَّخذ له فى كل شَهر ثلاثين أَلف دِرْهم ، سوى ما كان يُجرى وسوى كُسوته . ولقد اتَّفق عنده مرةً مِن الجوارى الوَدائع لإخوانه ثمانون جاريةً ، ما منهنَّ واحدةٌ إلا و يُجْرَى عليها من الطعام والكُسوة والطِّيب مثلُ ما يُجرى لأَخَصِّ جواريه ، فإذا رُدَّت الواحدةُ منهن إلى مولاها وَصلها وكساها . ومات وما فى مِلكه إلا ثلاثه آلاف دِينار ، وعليه سبعُمائة دِينار ، قُضِيتْ منها .

حديث الجارية التى اشتراها منه الرشيد

وقال إسحاق بن إبراهيم :

اشترى الرَّشيدُ من أبى جاريةً بِستَّة وثلاثين ألف دينار ، فأقامتْ عنده ليلةً ، ثم أَرسل إلى الفَضل بن الرَّبيع : إنّا اشترينا هذه الجارية من إبراهيم ، ونحسب أنها من بابَتِنا[1] ، وليست كما ظَنَنَّا ، وما قَرَبتُها ، وقد ثَقُل علىّ الثَّمن ، و بينك و بينه ما بينكما ، فاذهب إليه واسأله أن يحُطَّنا من ثمنها ستةَ آلاف دينار . فصار الفَضل إليه فاستأذن . فخَرج فتلقَّاه . فقال : دَعْنى من هذه الكرامة التى لا مَؤُونة فيها ، لستُ ممن يُخْدَع ، وقد جئتُك فى أمر أصدُقُك عنه . ثم أَخبره الخبرَ كُلَّه . فقال له إبراهيم : إنما أراد أن يَبْلُوَ قدرَك عندى . ثم قال : ما لى

(١) أى تصلح لنا .

فى المساكين صدقةٌ إن لم أُضعِّفه لك ، قد حططتُك اثنى عشر ألف دينار . فرجع الفضل إليه بالخبر ، فقال : ويلك ! احمل إلى هذا ماله ، فما رأيتُ سُوقَةَ قطُّ أنبلَ نفساً منه . قال إسحاق : وكنتُ قد أتيتُه وقلتُ له : ما كان لخطيطة هذا المال معنًى وما هو بقليل . فقال لى : أنت أحمق ! أنا أعرفُ الناس به . والله لو أخذتُ المال منه مكمَّلا ما أخذتُه إلَّا وهو كارهٌ له ، ويَحقد علىّ ذلك ، وكنت أكون عنده صغيرَ القَدْر ، وقد مَننْتُ عليه وعلى الفَضل ، وانبسطتْ نفسُه ونَشِط وعظُم قدرى عنـــده ، وإنما اشتريتُ الجاريةَ بأربعين ألف دِرهم ، وقد أخذتُ بها أربعةً وعشرين ألف دينـار . فلمَّا حُمل المـال إليه بدون حطيطة دعانى وقال : كيف رأيت ياإسحاق ! مَن البصيرُ أنا أم أنت ؟ فقلت: جعلنى الله فِداك ! أنت .

أخرجه الرشيد من الحبس فغناه فوصله

وقيل :

غَضب الرَّشيدُ عليه يوماً مرَّةً فقيَّده وحَبسه بالرَّقة . ثم جَلس للشُّرب يوماً فى مَجلس ، قد زَيَّنه وحَسَّنه ، فقال لعيسى بن جعفر : هل لمَجلسنا عَيْب ؟ قال : نعم ، غيبةُ إبراهيمَ الموصلى عنه . فأمر بإحضاره ، فأُحضر فى قُيوده ، ففُكَّت عنه بين يَديْه ، وأمرهم فناولوه عُوداً ، وقال : غنّى ياإبراهيم ، فغنَّاه :

تَضوَّع مِسْكاً بَطْنُ نَعْمانَ أنْ مَشَتْ به زَيْنَبٌ فى نِسْوةٍ خَفِـــراتِ

فاستعاده وشَرب وطَرب وقال : هَنأْتنى يومى وسأهْنِئك بالصِّلة ، قد وهبتُ لك الهَنِيء والمَرِيء ، وهما قريتان عظيمتان من قُرى الرقَّة . فلما أصبح عوَّضه عنهما مائتى ألف درهم .

ثنى بيتاً أنشده يحيى وغناه فيه فأجازه

وحَكى إبراهيم قال :

رأيتُ يحيى بن خالد خارجاً من قَصره الذى عند باب الشَّماسيَّة يُريد قصره الذى بباب البرَدَان[1] ، وهو يَتمثَّل :

(١) البردان : قرية من قرى بغداد .

هَوًى بتهامةٍ وهوًى بنَجْـدِ فأتلفنى[1] التَّهـائم والنُّجودُ

فزدتُه عليه :

أُقيم بذا وأَذكر عَهْد هـذا فلِي ما بين ذاك هوًى جَدِيدُ

وصنعتُ فيـه لحناً ثم صرتُ إليه فغنَّيتُه . فأمر لى بألف دينارٍ وبدابّته التى كانت تحته يومئذ بسَرجه ولجامه . فقلتُ : جزاك الله من سيِّد خيراً ! فإنك تأتى الأَنْفُس وهى شوارد فتُقِرها ، والأهواء وهى سقيمة فتُصحّها . فأمر لى بألف دينار أُخرى . قال إبراهيم : ثم ضَرب الدَّهر من ضَربه[2] ، فبينا أنا أَسير معه ، إذ لَقِيه العبّاس بن الأَحنف ، وكان ساخطاً عليه لشىء بلغه عنه ، فترجَّل له وأَنشده :

بالله يا غضـبانُ إلَّا رَضِيتْ أَذا كرٌ للعهـد أم قد نسِيتْ

فقلت : بل ذا كرٌ يا أبا الفضل . وأضفتُ إليه هذا البيت :

لو كنتُ أَبغِى غير ما تَشتهى دعوتُ أن تُبْـلَى كما قد بُليتْ

وصنعتُ فيـه لحناً وغنَّيته به . فأمر لى بألف ينار ، وضَحِك . فقلتُ : مِن أى شىء تضحك يا سيدى ؟ لا زلتَ ضاحكاً مسروراً . قال : ذكرتُ ما جرى فى الصّوت الأول ، وأنه كان مع الجائزة دابّة بسَرْجه ولجامه ، ولن تَنصرف الليلةَ إلا بمثله . فقُمت فقبَّلت يدَه . فأمر لى بألف دينار أُخرى وقال : تلك الـكَرَّة شكرتَ على الجائزة بكلام وزِدْناك ، والآن شكرتَ بفعل أَوجب الزِّيادة ، ولولا أنِّى مُضيق فى هذا الوقت لضاعفتُها ، ولـكن الدَّهر بيننا مُستأنف .

قيل : شىء عنه

وكان إبراهيم فى براعتـه فى الغِناء وتقدُّمه فيـه كالرَّجل المُفوَّه ، إن خَطب أَحسن ، وإن كتب أَحسن ، وإن قال شعراً أَحسن ، بخلاف غيره من المُغنِّين .

(١) فى بعض أصول الأغانى : « فأبلتنى » . (٢) أى مر من مروره ومضى بعضه .

شعر أبى العتاهية له فى حبسه

وذُكر أنه لما حَبس الرشيدُ إبراهيم الموصلىّ قال أبو العتاهية يُخاطبه :

أيا غَمِّى لغمِّك يا خَليلِى ... ويا وَيْلى عليك ويا عَويلِى
يَعِزُّ علىّ أنك لا تَرانى ... وأنِّى لا أراك ولا رَسُولى
وأنَّك فى مَحلٍّ أذًى وضِيقٍ ... وليس إلى لقائِك من سَبيل
وأنِّى لستُ أملك عنك دَفْعاً ... وقد فُوجئتَ بالخَطب الجليل

وقال أيضاً فى حَبْسه :

سَلْمُ يا سَلْمُ ليس دُونك[1] سِرٌّ ... حُبِس المَوصلىُّ فالعَيْشُ مُرُّ
ما استطاب اللَّذاتِ مُذْ غاب فى المُطْـ ... ـبِق رأسُ اللَّذات فى النّاس حُرُّ
تَرك الموصلىُّ مَنْ خلق اللّـ ... ـهُ جميعاً وعَيشُهم مُكْفهرّ
حُبس اللهوُ والسُّرور فما فى الْـ ... أرض شىءٌ يُلْهَى به أو يُسَرّ

هو ومخارق وأخذهما دراهم من يحيى البرمكى وأولاده

وحَكى مُخارقٌ قال :

اشتغل الرَّشيدُ يوماً واصطبح مع الحُرَم ، وقد أصبحت السماء مُتغيِّمة تطِشُّ طشًّا خَفيفاً . فقلتُ : والله لأذهبنّ إلى أُستاذى إبراهيم فأعرف خبره ، ثم أعود . فأمرتُ مَن عندى أن يسوُّوا مجلساً لنا إلى وقت رُجوعى ، فجئتُ إلى إبراهيم الموصلىّ ، وإذا الباب مَفتوح والدِّهليز قد كُنس والبوَّاب قاعد ، فقلت : ما خبر أستاذى ؟ فقال : أُدخل . فدخلتُ ، فإذا هو جالسٌ فى رِواق له وبين يَدَيْه قُدورٌ تُغَرْغِر وأَباريق تَزْهَر ، والسِّتارة مَنْصوبة والجَوارى خلفها ، وإذا قُدّامه طَسْت فيه رِطْليّة وكُوز وكأس . فدخلتُ أترنّم ببعض الأصوات ، وقلتُ له : ما بالُ السِّتارة لستُ أسمع من ورائها صوتاً ؟ فقال : اقعد ويحك ! إنِّى أصبحتُ على الذى ظننتَ ، فجاءنى خبرُ ضَيعة تُجاورنى ، وقد والله طلبتُها زَماناً وتمنَّيتها

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ستر » مكان « سر »

ولم أملكها . وقد أُعطى بها صاحبُها مائةَ ألف دِرْهم . فقلتُ له: ما يَمْنعك منها ؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعاف هذا المال وأكثر . فقال : صدقتَ ، ولكن لستُ أطيبُ نَفْسًا بأن أُخرج هذا المال . فقلتُ : فمن يُعطيك الساعةَ مائةَ ألف درهم ؟ والله ما أطمع فى ذلك من الرّشيد فكيف بمن دونه ! فقال : اُجلس ، خُذ هذا الصوت . ثم نقر بقضيبٍ على الدَّواة وألقى هذا الصوت علىّ :

نام الخَليُّون عن همٍّ وعن[1] سَقمِ ... وبِتُّ من كثرة الأحزان لم أنَمِ

يا طالبَ الجود والمعروف مجتهداً ... اَعْمِد ليحيى حليفِ الجود والكَرم

والشّعر لأبى النَّضير[2] يَمدح به يَحيى بن خالد بن برمك . قال : فأخذتُه وأحكمتُه . ثم قال لى : اُمضِ الساعةَ إلى الوزير يحيى بن خالد فإنك تجد الناس عليه قبل أن يُفتح الباب ، ثم تَجد الباب قد فُتح ولم يجلس بعدُ ، فاستأذنْ عليه قبل أن يصل إليه أحد ، فإنه سيُنكر مجيئك ويقول : من أين أقبلت فى هذا الوقت ؟ فحدِّثه بقَصْدك إيّاى وما ألقيتُ إليك من خبر الضَّيعة ، وأعلمه أنّي قد صنعتُ هذا الصوتَ وأعجبنى ، ولم أر أحداً يستحقّه إلا جاريته فُلانة ، وأنّى ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه لتطرحَه عليها . فسَيدعوها ويأمر بالسّتارة فتُنصب ويُوضع لها كرسى ويقُول لك : اُطْرحه عليها بحَضرتى . فافعل وأْتنى بما يكُون بعد ذلك من الخبر . قال : فجئتُ بابَ يحيى بن خالد ، فوجدتُه كما وَصف . وسألنى ، فأعلمتُه بما أمرنى به . ففعل كل شىء قال لى إبراهيمُ . وأحضر الجارية فألقيتُه عليها . ثم قال : تُقيم عندنا يا أبا المُهنأ أو تَنصرف ؟ فقلت : أنصرفُ ، أطال الله بقاءك ، فقد علمتَ ما أُذن لنا فيه . فقال : يا غلام ، احمل مع أبى المُهنَّأ عشرة آلاف

(١) فى بعض أصول الأغانى : « من هم ومن سقم » .

(٢) هو عمر بن عبد الملك البصرى ، شاعر من شعراء البصرة ، وكان يغنى على جوار له مولدات ، وكان صديقاً لأبان اللاحقى ثم افترقا وتهاجيا . وانقطع أبو النضير إلى البرامكة إلى أن مات . وستَرد ترجمته .

دِرهم ، واحمل إلى أبى إسحاق مائة ألف درهم ثمن هذه الضَّيعة . فحملتُ العشرة آلاف معى ، وأتيتُ منزلى وقلت : أُسَرُّ يومى وأَشرب وأُسُرّ مَن عندى . ومَضى الرسول بالمال إلى إبراهيم . فدخلتُ مَنزلى ونثرتُ على مَن عندى مِن الجوارى دَراهم من تلك البَدْرة ، وتوسدتُها وأكلتُ وشربتُ يومى كلّه . فلما أصبحتُ قلت : والله لآتينَّ أستاذى ولأَعرفنّ خَبره . فأتيتُه فوجدتُ الباب كهيئته بالأمس . ودخلتُ فوجدتُه على مثل ما كان عليه ، فترنمتُ وطَرّبت ، فلم يَتلَقَّ ذلك بما يجب . فقلتُ : ما الخبر ؟ ألم يأتك المال ؟ قال : بلى . فما كان خبرك أنت ؟ فأخبرتُه بما كان وُهب لى ، وقلت : ما يُنْتَظر من خلف الستارة ؟ فقال : ارفع السِّجف . فرفعتُه فإذا عشرُ بِدَر . فقلتُ : فأيُّ شىء بَقى عليك فى أمر الضَّيعة ؟ فقال : ويحك ! ما هو والله إلا أن دخلتْ منزلى حتى شَحِحتُ عليها وصارتْ مثل ما حَويتُ قديماً . فقلتُ : سبحان الله العظيم ! فتصنع ماذا ؟ قال : قُم حتى أُلقى عليك صوتاً صنعتُه يفُوق ذلك . فقُمتُ فجلستُ بين يديه . فألقى علىّ :

ويَفْرح بالمَوْلود من آل بَرْمك ... بُغاة النَّدى والسَّيفُ والرُّمْحُ والنَّصْلُ
وتَنْبسط الأَموالُ فيه لفَضْله ... ولا سيما إنْ كان من وَلَد الفَضْل

والشِّعر لأبى النَّضير .

قال : فلما أَلقى علىّ الصوتَ سمعتُ ما لم أَسمع بمثله قَطُّ وصَغُر فى عينىَّ الأَوّل ، فأحكمتُه . ثم قال : امض السّاعةَ إلى الفَضْل بن يحيى ، فإنك تجده لم يأذن لأحد بعدُ ، وهو يريد الخَلوة مع جواريه اليومَ ، فاستأذن عليه وحدِّثه بحديثنا أمسِ . وما كان من أبيه إلينا وإليك . وأَعلمه أَنِّى قد صنعتُه بالأَمس وأَنى ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه . ووجّهتُ بك قاصداً لتُلقيه على فُلانة جاريتِه . فصرتُ إلى باب الفَضل فوجدتُ الأَمر على ما ذَكره ، واستأذنتُ فوصلتُ ، وسألنى عن الخبر ، فأَعلمتُه بخبرى وما وَصل إلىَّ وإليه من المال . فقال : أَخزى الله إبراهيم ! ما أَبخله

على نفسه ! ثم دعا خادماً فقال : اضرب السِّتارةَ ، فضَربها . ثم قال : أَلْقه . فلما غنَّيتُه لم أُتمَّه حتى أَقبل يجر مِطْرفه ، ثم قَعد على وسادةٍ دون السِّتارة وقال : أَحسن والله أُستاذك ! وأَحسنت أنت يا مُخارق ! فلم أبرح حتى أَخذتْه الجاريةُ فأحكمتْه . فسُرّ بذلك سُروراً شديداً وقال : أَقِم عندى اليومَ . فقلتُ : ياسيدى ، إنما بقى لنا يومٌ واحد ، ولولا أَنِّى أُحب سُرورك لم أَخْرُج من منزلى . فقال : يا غلام، احمل مع أبى المُهنأ عِشرين ألف دِرهم ، و إلى أبى إسحاق مائتى ألف دِرهم . فانْصرفتُ إلى منزلى بالمال . وفتحتُ بدرةً فنثرتُ منها على الجوارى وشربتُ أنا ومَن عندى . فلما أصبحتُ بكَّرتُ إلى إبراهيم أتعرّف خبره وأُعرِّفه خبرى . فوجدتُه على الحال التى كان عليها أولاً وآخراً . فدخلتُ أترنَّم وأُصفِّق . فقال لى : اُدْنُ . فقلتُ : ما بَقى ؟ فقال : اجلس وارفع سِجْف هـذا الباب . ففعلتُ، فإذا عشرون بَدْرة مع العَشْرة . فقلتُ : ماتَنتظر ؟ فقال : و يحك ! ماهو والله إلا أن حصلتْ حتى جَرتْ مجرى ما تقدَّم . فقلتُ : والله ما أظن أن أحداً نال فى هذه الدَّولة ما نلتَ ، فلِم تَبخل على نفسك بشىء تمنَّيتَه دهراً ، وقد مَلَّكك الله أضعافه ؟ فقال : اجلس فخُذ هذا الصوتَ . فجلست ، فألقى علىَّ صوتاً أنسانى صوتىَّ الأَوَّلَيْن ، وهو :

أفى كُلّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليلةٍ ... إلى أُمِّ بَكْرٍ لا تُفيق فتُقْصِرُ
أُحِبُّ على الهِجران أكنافَ بَيْتها ... فيالَكَ من بيتٍ يُحَبّ ويُهْجَر
إلى جعفرٍ سارتْ بنا كُلُّ[1] جَسْرةٍ ... طَواها سُراها نحوَه والتهجُّر
إلى واسعٍ للمُجْتدين فِناؤه ... تَرُوح عَطاياه عليهم وتَبْكُر

والشعر لمَروان بن أبى حَفْصة .

(١) الجسرة : الناقة العظيمة .

قال مخارق : ثم قال لى إبراهيم : هل سمعتَ مثلَ هـذا ؟ فقلتُ : ما سمعت قطُّ مثلَه . فلم يزل يُردِّده علىَّ حتى أخذتُه . ثم قال لى : امضِ إلى جعفر فافْعـل به كما فعلتَ بأبيهِ وأخيه . قال : فمضيتُ ففعلتُ مثل ذلك، وخبّرتُه ما كان، وعرضتُ الصوتَ ، فسُرَّ به . ودعا خادماً فأمره بضرب السِّتارة ، وأحضر الجاريةَ وقعَد على كُرسىّ ثم قال : هاتِ يا مُخارق . فاندفعتُ فألقيتُ الصوتَ عليها حتى أخذتْه . فقال : أحسنت يا مُخارق ! وأحسن أستاذك ! فهل لك فى المُقام عندنا اليوم ؟ فقلت : يا سيدى ، هذا آخر أيّامنا ، و إنما جئتُ لموقع الصّوت منّى حتى ألقيتُه على الجارية . فقال: ياغُلام ، تَحمل مع مُخارق ثلاثين ألف درهم ، و إلى الموصلىّ ثلثمائة ألف درهم . فصرتُ إلى منزلى بالمـال ، وأقمتُ ومَن عنـدى مسرورين ، نَشْرب طُول يومنا ونَطرب . ثم بكّرتُ إلى إبراهيم فتلقّانى قائماً ، ثم قال : أحسنتَ يا مُخـارق ! فقلت : ما الخَبر ؟ فقال : اجلس . فجلستُ . وقال لمن خَلف السّـتارة : خُذوا فيما أنتم فيـه . ثم رُفع السِّجف . فإذا المالُ . فقلت : ما خَبر الضَّيعة . فأدخل يده تحت مِسْورة[1] وهو مُتّـكىء عليها ، فقال : هذا صَكُّ بالضَّيعة ، سُئل عن صاحبها فوُجد ببغداد ، فاشتراها منه يحيى بن خالد وكَتب إلىّ : قد علمتُ أنك لا تَسْخو نفسُك بشراء هـذه الضيعة من مالٍ يحصُل لك ولو حَوَيْت الدُّنيـا كُلَّها ، وقد ابْتعتُها لك من مالى . ووجَّه إلىَّ بصكِّها وهذا المال كما ترى . ثم بكى وقال : يا مُخارق ، إذا عاشرتَ فعاشرْ مثـل هَؤلاء ، و إذا احتكرت فاحتكر[2] مثل هؤلاء ، ستمائة ألف ، وضَيعة بمائة ألف ، وستّون ألف دِرهم لك . حصّلنا ذلك أجمع وأنا جالسٌ فى بيتى لم أبرح منه ، فمتى يُدْرَك مثلُ هؤلاء .

أعطاه الفضل بن يحيى بعد أن حبس الخليفة عنه يده

وحَـكى إبراهيم المَوصلى قال :

(١) المسورة : الوسادة .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « خنكرت فخنكر لمثل هؤلاء » . وخنكر ، أى غنى ، فارسى .

أتيتُ الفَضل بن يحيى يوماً فقلتُ له : يا أبا العبَّاس ، جُعلت فِداك ! هبْ لى دَراهم فإن الخليفة قد حَبس يدَه عنِّى . فقال : يا أبا العباس ، ماعندى ما أرضاه لك . ثم قال : هاه ، إلّا أنّ هاهنا خَصْلةً[1] : أتانا رسولُ صاحبِ اليمن فقضَينا حوائجه ، ووجَّه بخمسين ألف دينار يشترى لنا بها محبَّتنا ، فما فعلتْ فلانةُ جاريتُك ؟ قلتُ : عندى ، جُعلت فِداك . قال : فهوذا ، أقول لهم يشترونها منك ، فلا تَنقُصْها من خَمسين ألف دينار . فقبَّلت رأسَه ثم انصرفتُ . فبكّر علىَّ رسولُ صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولى ، فقال : جاريتُك فلانة عندك ؟ فقلت : عندى . قال : اعرضْها علىَّ . فأخرجتُها . فقال : بكم ؟ فقلتُ : بخمسين ألف دينار ، ولا أنقُص منها ديناراً واحداً . وقد أعطانى الفضلُ بن يحيى أمسِ هذه العطيّة . فقال لى : هل لك فى ثلاثين ألف دينار مُسلَّمة لك ؟ وكان شرائى الجارية بأربعمائة دينار . فلما وقع فى أُذنى ذِكرُ ثلاثين ألفَ دينار ، أُرتج علىّ ولحقنى زَمَع[2] . وأشار علىّ صديقى الذى معه بالبيع ، وخِفْتُ والله أن يحدُث بالجارية حَدَث أو بى أو بالفَضل ابن يحيى ، فسلّمتُها وأخذت المال . ثم بكّرت على الفضل ، فإذا هو جالسٌ وحدَه . فلما نظر إلىّ ضَحك وقال لى : يا ضيِّقَ العَطَن والحَوْصَلة[3] ، حَرَمْت نفسك عشرين ألف دينار . فقلتُ له : جُعلتُ فِداك ! دع ذا عنك فو الله ، لقد دخلنى شىء أعجزُ عن وَصْفه ، وخفتُ أنْ يحدُث بى حادث أو بالجارية أو بالمُشترى أو بك ، أعاذك الله من كل سُوء ، فبادرتُ بقَبول الثلاثين ألف دينار . فقال : لا ضَير ، يا غُلام ، جِىء بالجارية . فجىء بها بعَيْنها . فقال : خُذ بيدها وانصرف مبارَكاً لك فيها . فما أردنا إلا منفعتك ولم نرُد الجارية . فلما نهضتُ قال لى :

(١) الخصلة : إصابة الهدف . يريد : حلا ومحرجا .

(٢) زمع : شبه رعدة .

(٣) العطن : مبرك الإبل . والحوصلة ، من الطير معروفة . ويكنى بضيقهما عن قلة الصبر ، كما يكنى بها عن البخل .

مكانك ، إنّ رسول صاحب أرمينية قد جاءنا فقَضَيْنا حوائجه ونفّذنا كُتبه . وقد ذكر أنه جاءنا بثلاثين ألف دينار يشترى بها لنا ما نُحب ، فاعرض عليه جاريتك ولا تنقصها من ثلاثين ألف دينار . فانصرفتُ بالجارية . وبكَّر علىّ رسولُ صاحب أرمينية ومعه صديقٌ لى آخر . فقاوَلنى بالجارية ، فقلتُ له : لستُ أنقُصها من ثلاثين ألف دينار . فقال لى : معى عشرون ألف دينار مُسلّمة ، خُذها بارك الله لك فيها . فدخَلنى والله مِثْل الذى دخلنى فى المرة الأُولى وخفتُ مثل خَوفى الأول . فسلَّمتُها وأخذتُ المال . وبكّرت على الفَضل بن يحيى فإذا هو وحدَه . فلما رآنى ضَحك وضَرب برجله ثم قال : ويحك ! حرمتَ نَفسك عشرةَ آلاف دينار ! فقلت : أصلحك الله ! خِفتُ والله مثلَ ما خفتُ فى المَرة الأُولى . فقال : لا ضَير ، يا غلام ، جاريتَه . فجىء بها . فقال : خُذها ، ما أردناها ولا أردنا إلا منفعتك . فلما ولّت الجارية صِحْتُ بها : أُرجعى . فرجعتْ . فقلت : أُشهدكَ ، جُعلتُ فداكَ ، أنها حُرة لوجه الله وأنى قد تزوجتُها على عشرة آلاف دِرهم ، كَسبتْ لى فى يومين خَمسين ألف دينار ، فما جزاؤها إلّا هذا . فقال : وُفِّقتْ إن شاء الله .

هو و محمد بن يحيى فى يوم مهرجان

وذُكر أن إبراهيم المَوصلىّ أتى محمدَ بن يحيى بن خالد بن بَرْمك فى يومِ مِهْرجان ، فسأله محمدٌ أن يُقيم عنده . فقال : ليس يُمكننى ، لأن رسولَ أمير المُؤمنين أتانى . قال : فتمُرّ بنا إذا انصرفتَ ولك عندنا كُلُّ ما يُهدَى إلىَّ اليومَ . فقال : نعم . وترَك فى المجلس صديقاً له يُحْصى مايُبعث به إليه . قال : فجاءت هدايا عجيبةٌ من كل ضَرب . وأُهدى له تِمثـالُ فِيل من ذَهب عَيْناه ياقوتتان . فقال محمد للرجل : لا تُخبره بهذا لِنَبعث به إلى فلانة . ففعل . وانصرف إبراهيم إليه فقال : أَحْضِرْنى ما أُهـدى إليك . فأحضره ذلك كُلَّه إلا التِّمثال . ثم قال له : لا بُدَّ من صِـدْقك ، كان الأمر كذا وكذا . فقال : لا . إلّا على الشَّريطـة وكما ضَمِنت . فجىء بالتِّمثال . فقال إبراهيم : أليس الهديَّة لى أعمل فيها ما أُريد ؟ قال :

بلى . فردَّ التِّمثال على الجارية ، وجعل يُفرِّق الهدايا على جُلساء محمد شيئاً فشيئاً ، وعلى جميع مَن حَضر من إخوانه وغلمانه ، وعلى مَن فى دُور الحُرَم ، حتى لم يَبْقَ منها شىء . ثم أخذ من المجلس تُفَّاحتَين لمَّا أراد الانصراف وقال : هـذا لى ، وانصرف . فجعل محمد يَعجب من كِبَر نَفْسه ونُبْـله .

هو والرشيد فى ليلة بلغه فيها ما أغضبه فغناه حتى سرى عنه

وحَكى إبراهيم قال :

بينا أنا عشيةً فى بيتى إذ أتانى خادم من خَدَم الرَّشـيد ، فاستحثّنى برُكوبى إليـه . فخرجت شبيهاً بالرَّاكض . فلمَّـا صِرْتُ إلى الدَّار عُدل بى عن المَدخل إلى دار لا أعرفهـا ، فانتهى بى إلى دارٍ جديدةِ البِناء . فدخلتُ صَحناً واسعاً ، وكان الرشـيد يَشتهى الصُّحون الواسـعة . فإذا هو جالس على كرسىّ فى وسط ذلك الصَّحن ليس عنـده أحدٌ إلّا خادم يَسْقيه ، وإذا هو فى لِبْسته التى كان يَلْبسها فى الصَّيف : غِلالةٌ رقيقة متوشِّح عليها بإزار رَشيدىّ عَريض القَلم أحمر . فلما رآنى هَشّ لى وسُرّ وقال : يا موصلىّ ، إنِّى اشتهيتُ أن أجلس فى هذا الصَّحن فلم يتَّفق لى إلّا اليوم ، وأحببتُ ألّا يكون معى ومعك أحد . ثم صاح : ياغلام ، فأتاه مائةُ وَصيف . وإذا هم فى الأَرْوقة مُستترون بالأساطين[1] حيث لا يراهم ، فلما ناداهم جاءوا جميعاً . فقال : مُقطَّعة لإبراهيم . وكان هو أول من قطع المُصَلّيات . فأُتيت بمقعد فأُلقى لى تُجاه وجهه بالقُرب منـه . ودعا بعُود وقال : بحياتى أطر بنى ماقدرت . قال : ففعلتُ واجتهدتُ فى ذلك ونشطتُ له ورجوتُ الجائزةَ فى عَشِيَّتى . فبينا أنا كذلك إذ جاء مَسرور الـكبير فقام مقاماً كان إذا قامه عُلم أنه يريد أن يُسارَّه بشىء . فأومأ إليه، فألقى فى أُذنه كلمةً خفيفة ثم تَنحَّى . فاستشاط غضباً واحمرت وَجْنتاه وانتفخت أوداجُه ، ثم قال : حتَّام أصـبر على آل بنى أبى طالب ! والله لأقتلنَّهم ولأقتلنَّ شِيعتهم ولأفعلنَّ ! فقلتُ : إنا لله ! ليس والله عنـد هذا أحدٌ يُخرج غضبَه عليه غيرى ، أحسبه والله سيُوقع بى ، فاندفعتُ فغنّيتُ :

(١) الأساطين : الأعمدة .

نِعْمَ عوناً على الهُموم ثلاثُ ... مُتْرعاتٌ من بعدهنّ ثلاثُ
بعـــدها أربعٌ تتمَّةُ عَشْرٍ ... لا بِطَاءٌ لكنَّهن[1] حِثَاث
فإذا ناولتْكهُنّ جَوارٍ ... عَطِراتٌ بيضُ الوجوه خِنَاث
تَم فيهـا لك السُّرور وما طَيَّـ ... ـب عيشاً إلّا الخِناثُ الإناث

فقال : ويحك ! اسقنى ثلاثاً لا أموت[2] همًّا . فشَرِب ثلاثاً مُتتابعةً ، ثم قال : أَعِدْ . فغنَّيتُ . فلما قلتُ :

* ثلاث * مترعات من بعدهن ثلاث *

قال : هات ويلك ثلاثاً ! ثم قال لى : غنِّ . فلما غنَّيته ، قال : حُثَّ علىّ بأربع تتمَّةَ العشر . ففعـل . فوالله ما استوفَى آخرهن حتى سَكِر ونام . فنَهض ليدخل وقال : قُم يا موصليّ فانصرف ، يا مَسرور ، أَقسمتُ عليك بحياتي وبحقِّي إلا سبقتَه بمائة ألف درهم ، لا أُستأمرُ فيها ولا فى شىء منها . فخرجتُ والله وقد أمنتُ خوفى ، وأدركتُ ما رجوتُ ، ووافيتُ منزلى وقد سَبقنى بمائة ألف درهم .

حديث مع الرشيد فى جارية عرض بها فى مجلسه

وحكى إبراهيم قال :

قال لى الرشـيدُ يوماً : يا إبراهيم ، بكِّر علىّ غداً حتى نَصطبح . فقلتُ له : أنا والصُّبح كفرسَىْ رِهان . فبكّرتُ فإذا أنا به خالياً وبين يديه جارية كأنها خُوط بانٍ أو جَدْلُ عنان ، حُلْوة المنظر ، دَمِثة الشمائل ، وفى يدها عودٌ . فقال لها : غنِّى . فغنَّت فى شعر أبى نُواس :

تَوهَّمـه قلبى فأصبح خـدُّه ... وفيه مَكان الوهم من نظرى أثْرُ
ومرَّ بقلبى[3] خاطراً فجرحتُـه ... ولم أَرَ جِسماً قطُّ يَجرحه الفِكْر
وصـافحه كفِّى فألم كفَّه ... فمِن غَمْز كفِّي[4] فى أنامله عَقْر

(١) حثات : مسرعات .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « لا أمت » .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « بوهمى » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « قلبى .. قلبى » .

قال إبراهيم : فذهبتْ والله بعقلى حتى كدتُ أفتضح ، فقلتُ : من هـذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذه التى يقول فيها الشاعر :

لها قَلْبى الغـــداةَ وقَلْبُها لى ... فنحن كذاك فى جَسَدَيْن رُوحُ

ثم قال: غنِّى . فغنَّت :

تقول غـــداةَ البَيْن إحدى نِسَائهم ... لِى الـكَبِدُ الحَرَّى فسِرْ ولك الصَّبْرُ
وقد خنقَتْها عَـــبرةٌ فدُمُوعها ... على خَـــدِّها بِيضٌ وفى نَحرها صُفْر

والشعر لأبى الشِّيص الخُزاعىّ .

قال : فشَرِب ، ثم سقانى وسقاها . وقال: غَنّ يا إبراهيم . فغنَّيتُ :

تَشَرَّب قَلبى حُبَّهـــا ومَشَى به ... تَمشِّى حُمَيَّا الـكأْس فى جِسم شَارِبِ
ودبَّ هواها فى عِظامى فشَـــفَّها ... كما دبَّ فى المَلْسوع سمُّ العَقـــارب

ففَطِن لتَعريضى ، وكانت جهالةً منّي . فأمرنى بالانصراف ولم يَدْعُنى شهراً ولا حضرتُ مجلسه . فلما كان بعد شهر دسَّ إلىَّ خادماً معه رقعةٌ فيها مكتوب :

قد تخوّفتُ أن أموت من الوَجْـ ... ـد ولم يَدْرِ مَن هَويتُ بما بِى
يا كتابى فاقْرَ السّـــلام على مَن ... لا أُسمِّى وقُل له يا كِتابى
إنَّ كفًّا إليكَ قـد[1] بَعَثتنى ... فى شَـقاء مُواصَـلٍ وعَـذاب

فأتانى الخادمُ بالرُّقعة ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : رقعـةُ فلانة الجارية التى غنَّتك بين يدى أمير المُؤمنين. فأحسَسْتُ بالقصة ، فشتمتُ الغُلام ووثبتُ إليـه فضربتُه ضرباً شفيتُ به نفسى وغيظى . وركبتُ إلى الرشيد من فَورى فأخبرتُه ، وأعطيتُه الرُّقعـة . فضَحِك حتى كاد يَستلقى وقال : على عَمْـد فعلتُ ذاك بك لأمتحنكَ وأعرف مذهبَك وطريقتك . ثم دعا بالخادم ، فخرج ، فلما رآنى قال :

(١) فى الأصل : « كتبتنى » مكان « بعثتنى » .

قطع الله يدَيْك ورجلَيْك ! قتلتنى ! فقلتُ : القتلُ والله كان بعض حقِّك لِمَا وردْتَ به علىَّ ، ولـكنّى رحمتُك فأبقيت عليك وأخبرتُ أمير المؤمنين ليأتى فى عُقوبتك بما تَسْتحقه . فأمر لى الرشيدُ بصلة سَنيَّة . والله يعلم ما فعلت ذلك عفافاً ولـكن خوفاً .

هو و إبليس

وحكى إبراهيم قال :

استأذنتُ الرشـيدَ فى أن يَهب لى يوماً من الجُمعة لا يبعث إلىّ فيـه بوَجْه ولا سَبب ، لأخلُوَ فيه بجوارىّ و إخوانى . فأذن لى فى يوم السَّبت وقال: هذا يومٌ أستثقله ، فالْهُ فيه بما شئت . فقعدتُ فى منزلى وتقدّمت بإصلاح طعامى وشَرابى وما أحتاج إليه ، وأمرت بوَّابى فأغلق الأبواب ، وتقدمت إليه ألَّا يأذنَ لأحد علىَّ البتـة . فبينا أنا فى مَجلسى والحُرم قد حَفُّوا بى وجَوارىّ يتردَّدْن بين يدىَّ ، إذا أنا بشيخ ذى هَيئة وجمال ، عليـه خُفَّان قصيران وقَميصان ، وروائح الطِّيب تفُوح منه حتى ملأ البيت والدارَ . فدَخلنى لدُخوله علىَّ مع ما تقدَّمتُ فيه غيظٌ ما دخلنى قطُّ مثله ، وهَمَمْتُ بطَرْد بوَّابى ومَن يحجُبنى لأجله . فسلَّم علىَّ أحسن سلام . فرددتُ عليه وأمرتُه بالجلوس . ثم أخذ فى أحاديث النـاس وأيام العرب وأشعارها حتى سَلَّ ما كان بى من الغَضب ، وظننتُ أن غِلمانى تخيروا مَسرَّتى بإدخال مثله علىَّ لأدبه وظَرفه . فقلتُ له : هل لك فى الطعام ؟ فقال : لاحاجة لى فيـه . فقلت : هل لك فى الشَّراب ؟ قال : ذاك إليك . فشربتُ رطلاً وسقيتُه مثلَه . فقال لى : يا أبا إسحاق ، أُريد أن تُغنِّى لنا شيئاً فنسمعَ من صَنعتك ما نَفَقْتَ به عند المُلوك والخاصّ والعامّ . فغاظنى قولُه ، ثم سهّلتُ الأمر على نفسى ، فأخذتُ العُود وجَسَسْته ، ثم ضربتُ وغنَّيتُ . فقال : أحسنتَ يإبراهيم ! فازداد غيظى . وقلت : ما رَضى بما فعـله من دُخوله علىَّ بغير إذنى ، واقتراحه أن أُغنِّيه ، حتى سمَّانى ولم يُـكَنِّنى ولم يُجمل مُخاطبتى ! ثم قال : هل لك فى أن تزيد ؟ فتذمَّمت

وأخذتُ العُود فغنَّيت. فقال: أجدتَ يا أبا إسحاق. فأتِمَّ حتى نكافئك ونغنِّيك. فأخذت العود وتغنَّيت وتحفَّظت، وقُمت بما غنَّيته إيَّاه قياماً تامًّا ما تحفَّظتُ مثله، ولا قُمت بغناء كما قُمتُ به له بين يدَى خليفة قطُّ ولا غيره، لقوله: أكافئك. فطَرِب وقال: أحسنتَ يا سيدى و يا أَوْثق عُددى. ثم قال: أتأذن لعبدك فى الغِناء؟ فقلت: شأنك. واستضعفتُ عقلَه فى أن يُغنِّى بحضرتى بعد ما سَمِعه منِّى. فأخذ العُود وجَسَّه، فوالله لقد خِلْتُ أنه ينطق بلسان عربىّ، لحسن ما سمعتُه من صوته. ثم غنَّى:

ولى كَبِدٌ مقروحةٌ من يَبيعنى ... بها كَبِداً ليستْ بذاتِ قُروحِ
أَباها علىَّ النَّاسُ ما يَشْتَرونها ... ومَن يَشْتَرِى ذا عُرة[1] بصَحيح
أَئِنُّ مِن الشَّوق الذى فى جَوانحى ... أَنينَ غَصِيصٍ بالشَّراب جَرِيح

قال إبراهيم: فوالله لقد ظننتُ أنّ الحِيطان والأبواب وكُلَّ ما فى البيت يُجيبه و يُغنِّى معه من حُسن غنائه، حتى خِلتُ أنى أسمع أعضائى وثيابى تُجاوبه، و بَقيتُ مَبهوتاً لا أستطيع الكلامَ ولا الجواب ولا الحركة بما خالط قلبى. ثم غنَّى:

ألا يا حماماتِ اللِّوَى عُدْنَ عَوْدَةً ... فإنِّى إلى أصواتكنَّ[2] حزينُ
فعُدْنَ فلما عُدْن كِدْن يُمِتْننى ... وكِدْت بأسرارٍ[3] لهن أُبِين
دَعَوْنَ بتَرداد الهَديل كأنما ... شَربْن[4] سُلافا أو بهنَّ جُنون
فلم ترَ عَيْنى مثلَهنّ حمائماً ... بكَيْن ولم تَدْمع لهنّ عُيون

قال: فكاد عَقلى أن يذهب طرباً وارتياحاً لِمَا سمعتُه. ثم غنَّى:

ألا يا صبا نَجْدٍ متى هِجْتَ من نَجْدِ ... لقد زَادنى مَسْراك وجداً على وَجْدِ

(١) العرة: الجرب. وفى بعض أصول الأغانى: «علة».
(٢) فى الأصل: «حنين» مكان «حزين».
(٣) فى بعض أصول الأغانى: «بأسرارى».
(٤) فى بعض أصول الأغانى: «الهدير ... سقين».

أأن هَتفتْ فى جُنْح ليلٍ حمامةٌ ... على غُصُنٍ غضِّ النَّبات من[1] الرَّند
بكيت كما يبكى الوليدُ[2] صَبابةً ... وذُبتَ من الحزن المُبرِّح والجَهْد
وقد زَعموا أنّ المُحبَّ إذا دنا ... يَمَلُّ وأن النَّأى يَشْفِى من الوَجْد
بكُلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا ... على أنّ قُرب الدَّار خيرٌ من البُعد

ثم قال : يإبراهيم ، هذا الغناء الماخُورىّ ، فخُذْ وانْحَ نحوَه فى غنائك وعلِّمه جواريك . فقلت : أعده علىَّ . فقال : لستَ تحتاج ، قد أخذتَه وفرغتَ منه . ثم غاب عنِّى . فارتعتُ وقُمتُ إلى السَّيف فجرَّدتُه وعدوتُ إلى الأبواب فوجدتُها مُغلقةً ، وقلت للجوارى : أى شىء سمعتُنّ عندى ؟ فقلن : سمعنا أحسنَ غناء سُمع . فخرجت متحيِّراً إلى باب الدار ، فوجدتُه مُغلقاً ، فسألتُ البوَّاب عن الشَّيخ . فقال : أى شيخ ! والله ما دخل البابَ اليومَ أحدٌ . فرجعتُ لأتأملَ أمرى ، فإذا هو قد هَتف بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا إسحاق ، أنا إبليس ، وأنا كنتُ نَديمَك اليومَ .

فركبتُ إلى الرشيد وقلت : لا أُطرفه أبداً بطُرفة مثلِ هذه . فدخلتُ إليه وحدَّثته الحديثَ ، فقال : ويحك ! تأمَّل هذه الأصوات : هل أخذتَها ؟ فأخذتُ العود فامتحنتُها ، فإذا هى راسخةٌ فى قلبى كأنها لم تزل . فطَرِب الرشيدُ عليها وجَلس يشرب ، ولم يكن عَزم على الشَّراب . وأمر لى بصلة وحُمْلان[3] ، وقال : الشَّيخ كان أعلمَ بما قال من أنك أخذتها وفرغتَ منها ، فليته أمتعنا بنَفسه يوماً واحداً كما أمتعك .

---

(١) الرند : شجر طيب الرائحة . والرواية فى بعض أصول الأغانى :
أأن هتف ورقاء فى رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند

(٢) فى بعض الأصول : « الحزين » .

(٣) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

حديث اختصاصه بشعر ذى الرمة يغنى فيه الرشيد

وحكى إبراهيم الموصلى قال :

قال لى جَعفر بن يحيى ، وقد عَلِم أنَّ الرشيدَ قد أَذن لى والمُغنِّين جميعاً فى الأنصراف يومئذ : صِرْ إلىَّ حتى أَهب لك شيئاً حسناً . فصرتُ إليه ، فقال : أيّما أحبُّ لكَ : الشىء الحَسن ، أو أُرشدك إلى شىء تكسب به ألفَ ألفِ درهم ؟ فقلت : لا بل يُرشدنى الوزير — أعزه الله — إلى هذا الوجه ، فإنّه يقوم مُقام إعطائه إياى هذا المال . فقال : إنّ أمير المؤمنين يحفظ شِعر ذى الرُّمة حِفظ الصبىّ ويُعجبه ويُؤثره ، فإذا سَمع فيه غناء أَطرب به أكثرَ مما يُطرب به غيرُه ممّا لا يَحفظ شعره ، فإذا غنَّيتَه فأطربتَه وأمر لك بجائزة، فقُم على رجلَيْك وقبِّل الأرض بين يديه وقُل : إنَّ لى حاجةً غيرَ الجائزة أريد أن أسألها أميرَ المُؤمنين ، وهى حاجة تقوم عندى مُقام كُلِّ فائدة ، ولا تضُرُّه ولا تَرْزؤه. فإنه سيقول لك : أىّ شىء حاجتك ؟ فقل : قَطيعة تُقطعنيها سهلةٌ عليك ولا قيمة لها ولا مَنفعة لأحد فيها . فإذا أجابك إلى ذلك فقُل : تُقطعنى شعر ذى الرُّمة أُغنّى فيه ما أختاره ، وتَحْظُر على المُغنِّين جميعاً أن يُداخلونى فيه ، فإنى أُحب شعره وأَستحسنه ، ولا أُحب أن يُنغِّصه علىّ أحدٌ منهم . وتَوثَّق منه فى ذلك . فقَبِلْتُ ذلك القول منه ، وما انصرفتُ مع ذلك القول إلّا بجائزة . وتوخَّيتُ وقتاً للكلام فى هذا المَعنى حتى وجدتُه ، فقمت فسألت كما قال لى، فرأيت السُّرور فى وَجهه، وقال : ماسألتَ شَططاً ، قد أقطعتُك ما سألت . فجعلوا يتضاحكون من قَولى ويقُولون : لقد استضخمتَ القَطيعة ! وهو ساكتٌ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى فى التوثُّق ؟ فقال : توثَّق كيف شئتَ . فقلت : بالله وبرسوله وتُربة أمير المُؤمنين المَهدىّ إلّا جعلتَنى على ثقة من ذلك ، بأن تحلف أنك لا تُعطى أحداً من المُغنّين جائزةً على شىء يُغنِّيه من شعر ذى الرُّمة ، فإن ذلك وثيقتى . فحلف عليها مُجتهداً لئن غنَّى أحدٌ منهم فى شعر ذى الرُّمة لا أَثابه ولا بَرَّه ولا سَمع غِناءه . فشكرتُ فِعْله وقبَّلتُ الأرض بين يديه ، وانصرفنا .

فغنَّيته مائةَ صوتٍ وزيادة عليها فى شعر ذى الرُّمة ، فكان إذا سَمع منها صوتاً طَرِب وزاد طرَبُه ووصلنى وأَجزل . ولم يَنتفع أحدٌ منهم به غيرى . فأخذتُ منه ألفَ ألفِ درهم ، وألفَ ألفِ درهم .

ترضى الرشيد ماردة بشعر غناه هو فيه

وذُكر أن الرشيد كان يَجِد بماردةَ ، أُم ولده المُعتصم ، وجداً شديداً ، فغَضبتْ عليه وغَضب عليها ، وتمادى بينهما الهجرُ . فأمر جَعفرُ بن يحيى العبَّاسَ بن الأَحنف ، فقال :

رَاجعْ أحبَّتك الذين هجرتَهم ... إنّ المُتيَّم قلَّما يَتجنّبُ
إن التجنُّبَ إنْ تطاول مِنكما ... دَبَّ السلوُّ وعزَّ منك المَطلب

وأَمر إبراهيم المَوصلىّ أن يُغنِّى به الرشيدَ . فلما سمعه بادَر إلى ماردةَ فترضَّاها . فسألت عن السبب فى ذلك فعرفته . فأمرتْ لكُل واحد من العبّاس و إبراهيم بعشرين ألف درهم ، وسألتْ الرشيدَ أن يُكافئهما . فأمر لهما بأربعين ألف دِرهم .

أول جائزة خرجت من الرشيد لشاعر كانت له

وقيل :

أول جائزة خَرجت لشاعر من الرَّشيد ، لمّا وَلى الخلافة، جائزةُ إبراهيم الموصلى؛ فإنه قال يمدحه لما وَلى :

أَلم تر أنَّ الشَّمس كانت مريضةً ... فلمّا وَلِى هارونُ أشرق نُورُهَا
تلبّست[1] الدُّنيا جمالاً بوجهه ... فهارونُ واليها ويَحيى وَزيرها

فأَمر له بمائة ألف دِرهم . وأمر له يحيى بن خالد بخَمسين ألف دِرهم .

هو والرشيد وقصة الزنبيل

وحَكى إبراهيم المَوصلىّ قال : قال لى الرشيدُ يوماً : إنى قد جعلتُ غداً للحُرم ، وجعلتُ ليلته للشرب مع الرِّجال ، وأنا مُقتصر من المُغنّين عليك، فلا تَشتغل غداً بشىء ولا تَشرب نبيذاً ، وكُن بحَضرتى فى وقت عشاء الآخرة . فقلتُ: السَّمعُ

(١) فى بعض أصول الأغانى : « فألبست » .

والطاعة لأمير المؤمنين . فقال : وحقِّ أبى لو تأخَّرت أو اُعتللت بشىء لأضربنّ عُنقك ! أفهمتَ ؟ قلتُ : نعم . وخرجتُ . فما جاءنى أحدٌ من إخوانى إلا اُحتجبتُ عنه،ولا قرأتُ رُقعةً لأحدٍ، حتى إذا صلَّيتُ المغرب ركبتُ قاصداً إليه . فلما قَرُبت من داره مررتُ بفناء قَصْرٍ ، فإذا زِنْبيل كبير مُستوثَق منه بحبال وأربع عُرًى ، قد دُلِّى من القصر ، وجاريةٌ قائمةٌ تنتظر إنساناً قد وُعد ليجلس . فنازعتْنى نفسى إليه ، فقلتُ : هذا خطأ ، فلعله يعُوقنى عن الخَليفة فيكون الهلاك . فلم أزل أُنازع نفسى وتُنازعنى حتى غَلبتْنى . فنزلتُ فيه ، ومُدَّ الزِّنبيل حتى صار بأعلى القصر . ثم خرجتُ فنزلتُ . فإذا جوارٍ كأنهن المَها جُلوسٌ ، فضحكْن وطَرِبْن وقُلن : قد جاء والله ! فلما رأينَنى من قريب تبادَرْن الحِجاب وقُلن : يا عدو الله ! ما الذى أدخلك علينا ؟ فقلتُ : يا عدوّاتِ الله! من الذى أردتُن إدخالَه ؟ ولِمَ صار أولَى منِّى بهذا ؟ فلم يزل ذلك دأبَنا ، وهُن يضحكن وأضحك معهن . فقالت إحداهن : أمّا من أردناه فقد فات ، وما هذا إلا ظريف ، فهلُم نُعاشرْه عشرةً جَميلة . فأُخرج لى طعام فدُعيتُ إلى أكله ، ولم يكن فىّ فَضْلة ، إلا أنِّى كرهتُ أن أنسب إلى سُوء العِشرة، فأصبتُ منه إصابةً مُعذِّر[1] . ثم جىء بالشراب فجعلنا نَشرب، وأخرجْن إلىَّ ثلاثَ جوارٍ لهن ، فغنَّين غِناءً مَليحاً ، فغنَّت إحداهن صوتاً لمَعبد . فقالت إحدى الثلاث من وراء السِّتارة : أحسن إبراهيمُ الموصلى ! هذا له . فقلتُ : كذبتِ ! ليس هذا له، هذا لمعبد . فقالت : يا فاسق ، ومايُدريك الغِناء ما هو ! ثم غنَّت الأُخرى صوتاً للغَريض . فقالت تلك : أحسن إبراهيم ! هذا أيضاً له . فقلت : كذبتِ ! هذا للغريض . فقالت : اللهم أخزه ، ويلك ! ومايُدريك ! ثم غنّت الجاريةُ صوتاً لى . فقالت تلك : أحسن ابنُ سُريج ! هذا له . فقلت : كذبتِ ، هذا لإبراهيم ، وأنت تنسُبين غناء الناس إليه وغِناءه إليهم . فقالت :

(١) المعذر : المعتذر .

ويلك ! وما يُدريك ؟ فقلت : أنا إبراهيم . فتباشَرْن بذلك جميعاً وظَهَرْن كُلُّهن وقُلن : كتمتنا نفسَك وقد سَررتنا . فقلت : أنا الآن أستودعكنّ الله . فقلن : وما السببُ ؟ فأخبرتُهن بقصّتى مع الرَّشيد . فقُلن : الآن طاب حَبْسك ، علينا وعلينا إن خرجتَ أُسبوعاً . فقلتُ : هو والله القَتل . فقُلن : إلى لعنةِ الله ! فأقمتُ عندهم أُسبوعاً لا أزول . فلما كان بعد أُسبوع ودَّعنى ، وقُلْن : إن سلّمك الله فأنت بعد ثلاثة عندنا . فأجلسنى فى الزَّنبيل وسُرِّحتُ . فمضيتُ من وَجهى[1] إلى دار الرَّشيد ، فإذا النِّداء فى طَلَبى فى بغداد ، وأنَّ من أحضرنى فقد سُوِّغ مِلكى وأُقطع مالى . فاستأذنتُ . فتبادر الخدمُ حتى أدخلونى على الرَّشيد ، فلما رآنى شَتمنى وقال : السَّيفَ والنِّطْع ! إيه يا إبراهيم ! تَهاونتَ بأمرى وتشاغلتَ بالعوامّ عما أُمرتُك به ! وجلستَ مع أشباهك من السُّفهاء حتى أفسدت علىَّ لذَّاتى ! فقلتُ : يا أمير المُؤمنين، أنا بين يديك، وما أُمرتَ به غيرُ فائت ، ولى حديثٌ عجيب ما سُمع بمثله قطُّ ، وهو الذى قَطعنى عنك ضرورةً لا اختياراً ، فإن كان عذراً فاقْبله وإلا فأنت أعلم . فقال: هاتِه، فليس بمُنْجيك . فحدَّثتُه . فوَجم ساعةً ثم قال : إن هذا لَعجبٌ ! أفتُحضرنى معك هذا الموضعَ ؟ فقلت : نعم ، وأُجلسك معهن إذا شئتَ قبلى حتى تَحْصُل معهن ، وإن شئت فعلى موعد . قال : بل على موعد . قلتُ : أفعلُ . فقال : انظُر . قلتُ : ذلك حاصلٌ لك متى شئتَ . فعدل عن رأيه وأجلسنى وشرب وطَرِب . فلما أصبحنا أمرنى بالانصراف وأن أجيئه من الغد . فمضيتُ إليهنّ فى وقت الموعد . فلما وافيتُ الموضعَ إذا الزَّنبيل مُعلَّق، فجلستُ فيه ، ومدَّه الجوارى فصعدتُ . فلما رأَيْنَنى تباشَرْن وحَمِدْن الله على سلامتى . فأقمتُ ليلتى . فلما أردتُ الانصراف قلتُ : إنَّ لى أخاً هو عِدْلُ نفسى عندى، وقد أحبّ مُعاشرتكنّ ووعدتُه بذلك . فقُلن : إن كنتَ تَرضاه فمرحباً به . فوعدتهن ليلةِ غدٍ ، وانصرفتُ

(١) فى بعض أصول الأغانى : « لوجهى » .

فأتيتُ الرشيدَ فأخبرتُه . فلما كان الوقتُ خَرج معى متخفِّياً حتى أتينا المَوضع . فصَعدتُ وصَعد بعدى ، ونزلنا جميعاً . وقد كان الله وفَّقنى لأن قلتُ لهنّ : إذا جاء صَديقى فاستَتِرْن عنه وعنّى ولا يَسْمَعنّ لكن نَطْقةً ، ولْيَكن ما تَخْتَرْنه من غناء أو تَقُلْنه من قول مُراسلةً . فلم يتعدَّيْن ذلك ، وأقَمْن على أتمّ سِتْر وخَفَر وشَربْنا كثيراً . وقد كان أمَرنى ألّا أُخاطبه بأمير المُؤمنين . فلما أخذ منّى السُّكر قلتُ سهواً : يا أمير المؤمنين . فتواثَبْن من وراء الستارة حتى غابت عنّا حركاتُهنّ . فقال لى : يابراهيم ، قد أفلتَّ من أمرٍ عظيم ، والله لو برزتْ لك واحدةٌ منهنّ لضربتُ عُنقك ! قُم بنا . فانصرفنا . فإذا هُنّ جوارى له قدغَضِب عليهنّ فحبسهنّ فى ذلك القَصر . ثم وجّه من غدٍ بخَدَمٍ له فردَّهن إلى قصره ، ووَهب لى مائة ألف درهم . وكانت الهدايا والألطاف تأتينى بعد ذلك منهن .

شعره فى مرضه

وحكى إسحاقُ بن إبراهيم الموصلى ، قال :

لما دخلتْ سنةُ ثمانٍ وثمانين ومائة اشتدّ أمرُ القُولَنْج على أبى ولَزمه ، وكان يعتاده فى الأحيان ، فقَعد عن خدمة الخليفة وعن نَوْبته فى داره ، وقال فى ذلك :

مَلَّ والله طَبيبى عن مُقاساةِ الّذِى بِى
سوف أُنْعَى عن قَريب لعَدوٍّ وحَبِيب

ووَضع فيه لحناً . وكان آخرَ شعر قاله ، وآخرَ لحنٍ وضعه .

زيارة الرشيد له فى علة الموت

وحُكى أنّ الرَّشيد رَكب حِماراً ودخل إلى إبراهيم وهو فى الأَبْزَن[1] جالسٌ ، فقال : كيف أنت يابراهيم ؟ قال : أنا والله يا سيدى كما قال الشاعر :

سَقيمٌ مَلَّ منه أَقْربوه وأَسْلمه المُداوى والحَميمُ

فقال الرشيدُ : إنا لله ! وخرج . فما بَعُد حتى سَمِع الواعيةَ[2] عليه .

(١) الأبزن : حوض من نحاس يستنقع فيه ، معرب . (٢) الواعية : الصراخ على الميت .

تقديم المأمون لابن الأحنف عليه فى الصلاة عليهما

ومات إبراهيم فى هذه السنة — أعنى سنة ثمان وثمانين ومائة — ومات فى ذلك اليوم العبّاس بن الأحنف ، وهُشيمة الحمّارة . فرُفع ذلك إلى الرَّشيد ، فأمر المأمونَ أن يُصلِّى عليهم . فخرج فصفُّوا بين يديه ، فقال : من هذا الأول ؟ قالوا: إبراهيم الموصلى . فقال : أخِّروه وقدِّموا العبّاس بن الأحنف . فقُدِّم فصلَّى عليهم . فلما فرغ دنا منه هاشمُ بن عبد الله بن مالك الخُزاعى فقال له : يا سيدى ، كيف آثرتَ العبّاس بالتَّقدِمة على من حَضَر ؟ قال لقوله :

وسعَى بها ناسٌ وقالوا إنّها ... لهى التى تَشْقَى بها وتُكابِدُ
فجحدتُهم ليكونَ غيرَكِ ظنُّهم ... إنِّى ليُعجبنى المُحبُّ الجاحد

ثم قال : أتحفظها ؟ قلت : نعم . قال : فأَنْشدنى باقيها . فأنشدتُه :

لما رأيتُ الليلَ سدَّ طريقَه ... عنِّى وعذَّبنى الظَّلامُ الرَّاكِدُ
والنَّجم فى كَبِد السَّماء كأنّه ... أَعْمَى تَحيَّر ما لدَيه قائِد
ناديتُ من طَرَد الرُّقاد بصدّه ... عمّا أُعالج وهو خِلْوٌ هاجد
ياذا الذى صَدع الفُؤاد[1] بهَجْره ... أَنْت البَلاء طريفُه والتَّالد
ألقيتَ بين جُفون عَيْنى[2] حُرقةً ... فإلى متى أنا ساهِرٌ يا راقد

فقال لى المأمونُ : أليس من قال هذا حَقِيقٌ بالتَّقدمة ؟ قلت : بلى والله يا سيدى .

شعر ابنه إسحاق فى رثائه

ولما تُوفى إبراهيم الموصلى رثاه ابنُه إسحاق بقَوْله :

سلامٌ على القَبر الذى لا يُجيبنا ... ونحن نُحيِّى تُربه ونخاطِبُه
ستَبْكيه أشرافُ المُلوك إذا رأَوْا ... محلَّ التَّصابى قد خلا منه جانِبُه
ويَبكيه أهلُ الظَّرف طُرًّا كما بَكى ... عليه أميرُ المُؤمنين وحاجِبه

(١) فى الأصل : « بصده » مكان « بهجره » .
(٢) فى الأصل : « جفوة » مكان « حرقة » .

ولمَّا بدا لى اليأسُ منه وأَنْزفتْ عيونٌ[1] بواكيه وملَّت نوادبُه
وصار شِفاه النَّفس من بعد[2] فَقْده إفاضةَ دَمْعٍ تَسْتهلُّ سَواكبه
جعلتُ على عَيْنىّ للصُّبح عَبرةً وللَّيل أُخرى ما بدتْ لى كواكبه

وقال أيضاً يرثيه :

عليك سلامُ الله مِن قَبرِ فاجعٍ وجادَك من نَوْء السّماكَيْن وابِلُ
هل أنت مُحيِّى القَبر أم أنت سائل وكيف تُحيَّا تُربةٌ وجَنادل
أظَلُّ كأَنِّى لم تُصِبْنى مُصيبةٌ وبالصَّدْر من وَجْدٍ عليك بَلابل
وهوَّن عندى فقدُه أنّ شَخْصَه على كُلِّ حالٍ بين عينىَّ ماثِل

الرشيد يعزى إسحاق ابنه فيه ويصله

وحكى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ قال :

دخلت إلى الرَّشيد بعَقب وفاة أبى ، وذلك بعد شهر من يوم وفاته ، فلما جلستُ ورأيتُ موضعَه الذى كان يجلس فيه دمعتْ عيناى ، فكفكفتُهما وتصبَّرت . ولَحنى الرشيد فدعانى إليه فأَدنانى منه . فقبَّلتُ يدَه ورجلَه والأرض بين يديه . فاستعبر ، وكان رقيقاً . فوثبتُ قائماً بين يديه وقلت :

فى بَقاء الخليفة المَيمون خلفٌ من مُصيبة المَحزون
لا يَضِير المصابَ حُزنٌ[3] إذا ما كان ذا مَفْزعٍ إلى هارون

فقال لى : كذاك هو والله ، ولن تَفقد من أبيك ما دُمتُ حيًّا إلا شَخْصَه. وأمر بإضافة رِزْقه إلى رِزْقى . فقلتُ : بل يأمر به أميرُ المُؤمنين لوَلده، ففى خِدمتى إيّاه ما يُغنينى . فقال : اجعلوا رِزْق إبراهيم لولده وأَضْعفوا رِزْق إسحاق .

(١) أنزفت العيون : نفد ماؤها .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « بعض ما بها » مكان « بعد فقده » .

(٣) فى بعض أصول الأغانى : « رزء » .